الفصل الخامس

واقع المسلمين

وفيه:

تمهيد

- المبحث الأول : أسباب الانحراف
- المبحث الثاني : آثار الانحراف
- المبحث الثالث : طريق النجاة

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

رأينا فيما سبق النظام الكامل، والاتساق الشامل، والموكب الموحد، لعبودية الكائنات كلها لرب العالمين، والذي يدل مجمله ومفصله على حكمة الصانع، ووحدانيته من خلال وحدة المخلوقات واتحادها في الغاية التي خلقوا من أجلها، ألا وهي عبوديتهم وخضوعهم لله تعالى.

كما رأينا شذوذ المخلوق البشري عن هذا الموكب وخروجه عن الخضوع التام للإله الحق، فانقسم إلى فريقين : فريقًا هدى، وفريقًا حقّ عليه الضلالة.

وظهرت لنا الصفحة البيضاء من عبودية المخلوق البشريّ، ممن هداهم الله تعالى ابتداءًا بصفوة البشر منهم وهم الأنبياء، ثم أتباعهم ثم الذين دونهم.

وها نحن إذ نتكلم في هذا الفصل عن واقع المسلمين اليوم نجد العجب من حالهم بالمقارنة بالقمة في تحقيق العبودية التي وصل إليها سلف الأمة، كما تظهر من خلال سيرة نبيهم ﷺ وصحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ ، وسلفهم الصالح فإنا نجد فرقًا شاسعًا وبونًا واسعًا. فلاشك أن ما كان عليه أولئك ليس كما عليه هؤلاء، وهذا مما يؤسف .

ولكننا نتساءل ما الذي أوجد هذه الهوة الشاسعة التي بين المسلمين وبين عبوديتهم لخالقهم؟ وما أسبابها؟ وما النتائج التي ترتبت على وجودها ؟

ثم بعد ذلك ما العلاج للخروج من هذه الهوة ؟

هذه الأسئلة المطروحة سابقا سوف نحاول ـ بمشيئة الله تعالى ـ أن نجد لها الأجوبة المناسبة من خلال الصفحات التالية من هذا الفصل، مع إيراد الأدلة الشافية من الكتاب والسُّنَّة وفهم سلف الأمة، وأقوال أهل العلم.

ولكني قبل أن أشرع في هذا فإني أريد أكتب موقفًا قد حدث لي خلال

زيارتي لليابان[١] حيث يعطي الصورة الواقعية لما آل إليه المسلمون اليوم من التفريط في دينهم شيئًا فشيئًا حتَّى لم يعد فيه سوى أسمائهم الإسلامية – إلا من رحم الله – نسأل الله العافية والسلام .

والحكاية كالتالي :

دار حديث بيني وبين أحد المسؤولين في المركز الإسلامي بطوكيو، ويعمل في الوقت نفسه مترجمًا في شركة يابانية، عن أحوال المسلمين وما آلوا إليه من حالة الذل والهوان الذي لم يكن قط في وقت من العصور السالفة، فأخبرني بحوار دار بينه وبين المدير الياباني بالشركة حول كتيب ترجمه من اللغة اليابانية إلى اللغة العربية وقدمه إلى المدير الياباني ـ الذي لديه خلفية لا بأس بها باللغة العربية ـ فإذا به يمزق الكتيب بأكمله في سلة المهملات.

فاستغرب الأخ الفاضل وسأل المدير: ولِمَ هذا؟!.

فقال المدير: إنك لم تكن دقيقًا في عملك.

فقال الأخ الفاضل: لقد عملت جاهداً لإخراج عمل جيد في الترجمة. فأخبرني عن عدم الدقة ؟!

فقال المدير : إنك لم تضع في الكتيب بأكمله النقطتين الخاصتين بالياء الممدودة مثل: (كهربائي) حتى تفرق بينها وبين المقصورة في مثل: (قصوى).

فقال الأخ الفاضل : ولكن هذا شيء يسير جداً ولا يذكر .

فقال المدير: نعم . . ! أحب أعرفك بأننا نحن اليابان بنينا بلدنا في خلال أربعين سنة لأننا بدأنا بما ليس له أهمية بالنسبة للآخرين ويسير؛ فالذي يجعلك تفرط في اليسير. . يجعلك تفرط في المتوسط. . ومن ثم في الكبير . . والكبير جداً. اهـ.

---

(١) انتدبت من قبل رابطة العالم الإسلامي في شهر رمضان عام ١٤٠٨هـ لصلاة التراويح بطوكيو ـ اليابان.

ثم علق الأخ الفاضل بقوله : وهكذا حال المسلمين. فقد ضيَّعوا وفرَّطوا في دينهم بالكلية، وذلك بتهاونهم في المستحبات والسنن. ثم تدريجيا في الواجبات والفرائض حتى ضيعوا دينهم بالكلية . نسأل الله تعالى العافية والسلام. ولقد تهاونوا في أمور كثيرة جعلوها من قشور الإسلام، وليست من صلبه فأدى ذلك إلى التهاون في الأمور الأساسية من الدين فتنازلوا عن الإسلام شيئًا فشيئًا ابتداءاً بالمستحبات وانتهاءاً بالواجبات، كما تهاونوا في ارتكاب المكروهات فأدَّى ذلك إلى انتهاك المحرمات والاستهانة بها. فمن الأمور التي استهانوا بها من أوامر الشرع ونواهيه: الثوب القصير، والسواك، وإعفاء اللحى، وحجاب المرأة المسلمة، وإلقاء السلام فيما بينهم، وتسوية صفوفهم في الصلاة، والتصوير الفوتوغرافي، وشرب المحرمات ـ ومنها الدخان ـ ثم انتقلوا إلى التفريط فيما هو أعظم من ذلك مثل : الصلاة ، وخاصة صلاة الجماعة في المساجد، والصيام، وهربوا من أداء الزكاة المفروضة ـ إلا من رحم ربك ـ ، كما تركوا الجهاد في سبيل الله، وركنوا إلى ملذات الحياة، كما ملئت بلدانهم بالبنوك الربوية، وفشا فيهم الغناء، والرقص والمعازف والقتل والزنا واللواط إلى غير ذلك من الكبائر والفواحش صغيرها وكبيرها، أضف إلى ذلك ولاءهم لأعدائهم مما أصبح له أكبر الأثر في حالة المسلمين اليوم في اتباع عادات وتقاليد الغرب، والبلاد الكافرة عمومًا، وثقافتهم، وهو الذي أخبر به النَّبيُّ ﷺ فقال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم شِبراً بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا في جُحر ضَبٍّ لاتَّبعتوهم**» قلنا: يا رسول الله آليهود والنصارى؟ قال: «**فمن**»(١).

وجاءت في إحدى الروايات .. «**وحتَّى لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم**»(٢).

---

(١) البخاري : ك ، الأنبياء ـ ب : ما ذكر عن بني إسرائيل . مسلم : ك : الفتن ـ ب: لتتبعن سنن الذين من قبلكم . (ومختصره / ح رقم ٢٠٠٢).

(٢) الأحاديث الصحيحة : ح رقم ١٣٤٨ .

إن المتتبع لأحوال المسلمين اليوم، وما هم عليه، يجد صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به في الحديث السابق، وفي الحديث الذي يقول فيه أيضاً: «**لتنقضن عُرى الإسلام عُروة عُروة فكلَّما انتقضت عروة تشبَّث الناسُ بالتي تليها، فأوَّلُهنَّ نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة**»(١).

فنحن نرد على هؤلاء الذين يجعلون تلك الأمور من قشور الإسلام(٢). فنقول لهم: إن تلك الأمور ليست هي الإسلام .. بالتأكيد .. ولكنها من الإسلام، وكل واحدة منها على حدة قد حث الشارع عليها وحذر وتوعد من تركها، فما بالك وهي مجتمعة كلها؟! فكما يقولون:

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

فيجب على المسلمين طاعة الله ورسوله في كل ما أمر به والبعد عن كل ما نهى عنه.

وكل ما أتى به الرسول فحقه التسليم والقبول

فخذ إليك على سبيل المثال:

أ ـ صلاة الجماعة:

فقد جاء التحذير والوعيد الشديد لتاركها من قبل النبي ﷺ حيث يقول: «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين**»(٣). وقال أيضاً: «**لينتهين رجال عن ترك الجماعة أو لأحرقن بيوتهم**»(٤).

إلى غير ذلك من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على وجوب صلاة الجماعة، ولكن ما يزيد المرء حسرة أن يأتي بعض الدعاة ـ وقد رأيت بعضهم ـ

---

(١) صحيح الجامع / ح رقم ٤٩٥١ .

(٢) ووالله الذي لا إله إلا هو ؛ قد عد أحد الدعاة البارزين في هذا العصر كون الإنسان أصله قرد أم لا، من قشور الإسلام حيث إن مشكلة المسلمين أعظم !.

(٣) ابن ماجه / ك : الصلاة ـ ب : التغليظ في التخلف عن الجماعة. (صحيح ابن ماجه / ٦٤٦ ـ ٦٤٧).

(٤) نفس المرجع السابق.

يستهين بهذا الواجب فيصلي في بيته ولا يصلي في المسجد الذي يبعد خطوات قليلة من منزله، ثم يقول : إن مشكلة المسلمين اليوم أكبر وأهم من صلاة الجماعة!! فأي مشكلة للمسلمين أكبر من ترك الصلاة، وحضور الجماعات؟!(١)، فأي مشكلة أشد وأكبر من أمر يجعل النبي ﷺ عقاب تاركه التحريق بالنار ؟!

ب ـ ثم نأتي لمسألة الثوب القصير:

وكيف حث النبي ﷺ عليه وحذر من إطالة الثوب سواء للخيلاء أو لغيره ـ ولاشك أن العقوبة أشد للخيلاء ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار**»(٢). وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**لاينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا**»(٣).

ورغم هذا التحذير الشديد من النبي ﷺ إلا أن الكثير من المسلمين يلبسون ثيابهم وملابسهم(٤)، غير عابئين بهذا التحذير، ويا ليت الأمر يتوقف إلى هذا الحد فحسب، بل يستهزءون بمن يحرص على تقصير الثوب ويرمونه بما لايرمى به العصاة والمجرمون، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فإن كان ابن عمر رضي الله عنه وهو أحد الصحابة الأتقياء لم يسكت النبي ﷺ عن إرخاء إزاره بل أمره أن يرفعه، فكيف

---

(١) تراجع هذه المسألة في كتاب: صحيح الترغيب والترهيب ـ للحافظ المنذري (بتحقيق الشيخ ناصر الألباني : ١٧٢/١).

(٢) البخاري : ك: اللباس ـ ب : ما أسفل الكعبين فهو في النار.

(٣) المصدر السابق ـ ب : من جر ثوبه من الخيلاء . مسلم: ك : اللباس والزينة ـ ب : لا ينظر الله إلى من يجر إزاره بطرًا (ومختصره : ح ١٣٥٦).

(٤) تعليق : أما إن كان لضرورة من وجود إصابة بالقدم ويستدعي الأمر تغطيتها فلا بأس فيه، كما ذكر ابن حجر في الفتح فقال ـ رحمه الله تعالى ـ «ويستثنى من إسبال الإزار مطلقا ما أسبله لضرورة كمن يكون بكعبيه جرح مثلاً ويؤذيه الذباب إن لم يستره بإزاره حيث لا يجد غيره ، واستدل على ذلك بإذنه ﷺ لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في لبس القميص الحرير من أجل الحكة، والجامع بينهما جواز تعاطي ما نهى عنه من أجل الضرورة، ويستثنى من الوعيد أيضاً في ذلك النساء» اهـ (فتح الباري: ١٠/٢٥٧). أما الإسبال في عصرنا . فهو ليس من وجود جروح في أقدام المسلمين .. ولكنهم مبتلون بجروح في عقولهم وقلوبهم !!.

بمن دون هؤلاء الصحابة الأعلام؟!! فقد جاء في الحديث عن ابن عمر ﷺ قال: «مَرَرتُ برسول الله ﷺ وفي إزاري استرخاء، فقال: «**يا عبد الله ارفع إزارك**» فرفعته، ثم قال: «**زِدْهُ**» فَزِدْتُ، مازلت أتحراها بعد. فقال بعض القوم: إلى أين؟ قال: إلى أنصاف الساقين»(١).

فأمر ﷺ هذا الصحابي الجليل برفع إزاره(٢) وكان في الإمكان أن يأمره بألا يتكبر إن كانت علة النهي هي الخيلاء والكبر فقط، وإنها إذا انتفت فلا بأس في الإسبال. فهل يظن بابن عمر وهو الصحابي الزاهد الورع ـ سوء، فنقول إنه متكبر؟ كلا وحاشا! بل بادر ﷺ إلى الاستجابة، فهل من مستجيب اليوم من المسلمين؟!

جـ ـ وأما عن عدم تسوية صفوف المسلمين في الصلاة:

فهي مما عمت به البلوى بين المسلمين في جميع أقطارهم ـ إلا ما رحم الله تعالى ـ والتفريط في هذا الجانب من الذين يأمون الناس في الصلاة فضلاعن المأمومين فيكتفى الواحد منهم بقول: استووا ... اعتدلوا، ولاشأن له بما يحدث في الصفوف، حتى الأول منها الذي يليه مباشرة، والسبب في ذلك هو أنه قد فشا بينهم أن تسوية الصفوف وغيرها من هوامش الإسلام وليست هي الصلب الذي يهتم بها.

ولكن لنتساءل كيف كان اهتمام رسول الله ﷺ بتسوية الصفوف في الصلاة؟!.

لقد كان ﷺ أشد الناس حرصا على تسوية الصفوف في الصلاة خوفا على أمته من الشقاق، واختلاف قلوب أصحابه، وخوفا عليهم من وخذ الشياطين في التحريش فيما بينهم.

فعن النعمان بن بشير(٣) ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَتسوُّنَّ صفوفكم**

---

(١) مسلم: ك: اللباس والزينة ـ ب: في رفع الإزار إلى أنصاف الساقين. ومختصره: ح ١٣٥٨

(٢) يراجع: تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني في مقدمة كتاب: (مختصر الشمائل المحمدية / ١٠).

(٣) هو: النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصارى الخزرجي، له ولأبويه صحبة، سكن الشام، ثم ولي إمرة الكوفة، ثم قتل بحمص سنة ٦٥هـ. (تقريب التهذيب: ٢/٣٠٣).

أو ليخالفن الله بين وجوهكم» [١]، وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم ولا تذروا فرجات للشيطان ومن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله»** [٢].

ويبين ﷺ أن السبب في سد الخلل وعدم ترك فُرجَة بين الصفوف هو منع اختراق الشياطين خلال هذه الفرجات؛ فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«رصوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا الأعناق، فو الذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف»** [٣].

وكان الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ ينكرون على من بعدهم تفريطهم في أمر تسوية الصفوف فعن أنس بن مالك ﷺ أنه قدم المدينة فقيل له: ما أنكرت منا منذ يوم عهد رسول الله ﷺ ؟ قال: «ما أنكرت شيئا إلا أنكم لا تقيمون الصفوف» [٤]. وعن أبي مسعود[٥] ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: **«استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»** قال أبو مسعود: «فأنتم اليوم أشدُّ اختلافًا» [٦].

فعجبًا لهؤلاء المفرِّطين في دين الله تعالى، أيّ أمرٍ، وأيّ مُشكلة للمسلمين أهم من أمر تسوية الصفوف الذي بتركه يكونون في اختلاف وفرقة وتشتت فيما بينهم، لا أقول إنه السبب الوحيد في تفرقهم واختلافهم ولكنه أحد تلك الأسباب، فإذا كان اختلاف القلوب الذي أنكره أبو مسعود ﷺ وأثبته لهؤلاء التابعين فيما بينهم بسبب تركهم تسوية الصفوف في الصلاة . فما بالنا نحن ومدى اختلاف القلوب الواقع بيننا في عصرنا هذا ؟!! فقد بلغ من حرص النبي

---

(١) بخاري : ك ، أذان ـ ب : تسوية الصفوف عند الإقامة.

(٢) أبو داود : ك، الصلاة ـ ب : تفريع أبواب الصفوف.

(٣) أبو داود : ك، الصلاة ـ ب : تفريع أبواب الصفوف.

(٤) بخاري : ك ، أذان ـ ب : إثم من لم يتم الصفوف .

(٥) هو : عقبة بن عمرو أبو ثعلبة الأنصارى، أبو مسعود البدري، صحابي جليل مات قبل الأربعين . (تقريب التهذيب : ٢٧/٢).

(٦) مسلم : ك ، الصلاة ـ ب : تسوية الصفوف (مختصره ح ٢٦٧).

ﷺ بهذا الأمر الذي يعتبره كثير من المسلمين من هوامش الإسلام أن كان يسوي صفوف المسلمين بيده، ولا يُكَبِّر إلا إذا استوت الصفوف، ويقول: «**سَوُّوا صُفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة**» (١).

د ـ ومما ابتلى به المسلمون في عصرنا الحديث وعمت به البلوى من علماء وعامة وشباب وشيبان هو حلق اللحى مخالفين بذلك أمر النبي ﷺ بقوله: «**أنهكوا الشوارب وأعفوا اللحى**» (٢).

وسواء أكان هذا الأمر للوجوب أو للاستحباب ـ كما يدعي البعض ـ فإن النبي ﷺ طلبه منا، وقد فعله، وكانت له لحية بها شعيرات بيض(٣)، فواجب علينا التأسي به كما أمرنا ربنا جل وعلا فقال: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** (٢١) ﴾ [الأحزاب : ٢١]، فما بالنا إن حذرنا ﷺ من مشابهة الكفار وأمرنا بمخالفتهم، فقال ﷺ: «**خالفوا المشركين ووفروا اللحى وأحفوا الشوارب**» (٤)، وكان الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ يرى بأن من يحلق شاربه ـ دون لحيته ـ يوجع ضرباً، ويقول: هذه بدعة ظهرت في الناس (٥).

فإن كان هذا الحكم من الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ فيمن حلق الشارب فقط، فماذا يكون حكمه ـ رحمه الله تعالى ـ فيمن يحلق اللحية مُدَّعيًا أن الإعفاء سُنَّة لا يؤاخذ من خالفها ؟! هذا وقد ذكرها ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ من جملة المخالفات التي يجب على المسلمين مخالفة المشركين فيها في كتابه

---

(١) أبو داود : ك، الصلاة ـ ب : تفريع أبواب الصفوف.

(٢) البخاري : ك ، اللباس ـ ب : إعفاء اللحى .

(٣) مختصر الشمائل المحمدية : باب/ما جاء في شيب رسول الله ﷺ ص٣٥ . مسلم : ك: الحيض، ب: أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى. (مختصره حر رقم ١٨٤).

(٤) بخاري : ك: اللباس ـ ب : تقليم الأظافر . مسلم : ك: الحيض ـ ب : أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى (مختصره ح رقم ١٨٤).

(٥) فتح الباري : ١٠ / ٣٤٧ .

القيم (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) فقال بعد أن ذكر الأحاديث الموجبة لإعفاء اللحى : « . . وذلك دليل على أن مخالفة المجوس أمر مقصود للشارع، وهو العلة في هذا الحكم، أو علة أخرى، أو بعض علة، وإن كان الأظهر عند الإطلاق : أنه علة تامة. ولهذا لما فهم السلف كراهة التشبه بالمجوس ـ في هذا وغيره ـ كرهوا أشياء غير منصوصة بعينها عن النبي ﷺ من هدي المجوس» (١) اهـ.

هذا عن حلق اللحية ، فما بالنا اليوم بمن يحلق لحيته وشاربه، ويتشبه باليهود والنصارى والمجوس والمشركين عامة، وهو من عداد المسلمين؟! نسأل الله العافية والسلامة.

تلكم بعض الأمور التي يعتبرها كثير من المسلمين اليوم قشورا، وكيف أثرت في المسلمين بتركهم إياها. هذا بخلاف العديد من تعليمات ومبادىء الإسلام التي فرط فيها أغلبية المسلمين. ولكنا أردنا التدليل على أحوال المسلمين اليوم في بعدهم عن العبودية الحقة. فالإسلام يعيش في غربة أشد من الغربة الأولى التي بدأ بها وأخبر عنها عليه الصلاة والسلام فقال: «**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء**» (٢).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ـ لابن تيمية / ١٧٨ . وأما مخالفة المجوس فليست علة تامة، لأنَّ اللحية من خصال الفطرة. كما ورد ذلك في تفسير ابن كثير : ١ / ١٦٥ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤].

(٢) مسلم : ك، الإيمان ـ ب : بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ (ومختصره / ح رقم ٧٢).

المبحث الأول
أسباب الانحراف

إن الانحراف الواقع في حياة المسلمين حتى يومنا هذا ـ بصفة خاصة ـ لم يحدث في خلال يوم أو بين عشية وضحاها. إنما هو تتابع سلسلة من الأحداث والأسباب التي أثّرت تدريجيًا في المسلمين وفي أعزّ ما يملكون وهو دينهم، فدفعت أهله وأذابتهم في وحل الكفار، فامتزجوا بعناصر غريبة حتى أصبحوا في قالب يصعب تميزه بالكلية، كما يصعب استخلاص عنصره ومعدنه الأصلي. كما نلحظ أن الانحراف الذي حدث في الأمة الاسلامية على مر عصور التاريخ منذ بدايته، كان يزحف بخطى قصيرة وقليلة وبكمية ضئيلة، ومع تتالي السنوات والقرون زادت خطوات انحراف المسلمين بخطى متباعدة وبكميات هائلة وبسرعة فائقة.

بادرة الإنحراف:

تعتبر حادثة مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه بتمردتلك الفئة الباغية وتطاولها عليه وإقدامها على قتله هي نقطة بداية الانحرافات في حياة الأمة الإسلامية، ولعلّي أستدرك فأقول: إن ما حدث في بداية خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه من أمر مانعي الزكاة والمرتدين ومدعي النبوة كان بادئة انحراف، إلا أنه قد تصدى لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقطع جذورها وأبادهم واستأصل شوكتهم.

أما ما حدث عند مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه يمثل انحرافًا ظلت آثاره ـ ومازالت إلى الآن ـ في حياة الأمة الإسلامية، وكذلك من بعد تولي الخلافة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ثم مقتله وظهور الفرق الثلاث الكبرى، وهي الخوارج والشيعة والمرجئة، هذه الانحرافات لم تبتر جذورها كالمرتدين، وإن أصيبت بضربات، ولكنها بقيت وانتشرت وما زالت إلى وقتنا الحالي، وقد أثّرت هذه

الانحرافات في كثير من تصورات الإسلام، ثم جاء العهد الأموي فازدادت فيه الانحرافات على يد كثير من الحكام وبطانات السوء، ولما أتى العهد العباسي ازدادوا فيه من الترف وملذات الحياة والجري وراء الشهوات، هذا مع اتساع الرقعة الإسلامية مما جعلهم يكنزون الأموال ويبذرونها في غير ما وضعت له شرعا، كما كان البعض لا يعدلون في كثير من الأحكام، هذا مع وجود انحرافات الفرق التي ذكرناها آنفا والمنتشرة في أماكن مختلفة من بلاد المسلمين وكادت هذه الفتن أن تشوه مبادىء العقيدة الإسلامية، إلا أنه قد قيض للأمة من يذب عن العقيدة ومبادئها من سلف الأمة بالسنان واللسان والقلم فبقيت محتفظة بصفائها وقوتها إلا أنها قد تسرب إليها بعض المعتقدات الفاسدة والبدع والتصورات الباطلة .

ترجمة العلوم اليونانية:

أضف إلى ذلك حدثا من أهم الأحداث الخطيرة التي أثرت بصورة مباشرة في العقيدة الإسلامية وأخرجتها من سهولتها ونقاوتها إلى متاهات وقوالب فلسفية في التجرؤ على الله تعالى والتقول عليه سبحانه، وهو ما حدث في العصر العباسي من ترجمة العلوم اليونانية وبصفة خاصة علم المنطق، وظهور علم الكلام الذي ساهم في تقوية الفكر الاعتزالي وإثرائه فظهرت بقوة فرقة المعتزلة التي قدمت العقل على النص فأبقت من النصوص الشرعية ما وافق عقلها وألغت ما يعارضه، فأفسدت في دين الله تعالى كثيرا خاصة في العقيدة الإسلامية، وأثرت في الفكر الإسلامي عموماً ـ إلى وقتنا هذا ـ تأثيراً سيئًا للغاية.

الصوفيـة :

كانت الصوفية عند ظهورها سلوكا محمودا يتقرب أصحابها إلى الله عز وجل بالطاعات والنوافل كما أنهم عزفوا عن الحياة وملذاتها وزهدوا فيها مع قدرتهم على العيش الرغيد إلا أنهم آثروا ما عند الله عز وجل من النعيم المقيم على اللذة العاجلة واتبعوا فعل النبي ﷺ وزهده في نعومة العيش ولذة المأكل والمشرب، وكذا فعل الصحابة والتابعين.

وهؤلاء القوم من الصوفية يذكر عنهم الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ بأنهم قوم مجتهدون في طاعة الله ، وفيهم السابق المقرب، وفيهم المقتصد الذي قد يجتهد فيخطئ، ثم يبين الشيخ أن من الناس من انتسب إلى هذا الصنف من الصوفية بالذات وهو عند التحقيق ليس منهم(١)، ثم يذكر الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ عن طائفة منهم اقتصروا على اللباس والآداب الوضعية والسلوكيات فيظن الجاهل من أمرهم أنهم من أهل الصنف الأول، وهم ليسوا كذلك(٢)، فاعتبرهم من أتباع وأذناب الصوفية، أما الصنف الأول وهم أهل عبادة وزهد قد أعطوا للتصوف صورة حسنة لدى العامة، بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يعترف بأن في الصوفية من يستحق الاحترام والتكريم والإشادة بما أوتوا من علم وعمل وحكم عالية ومواعظ مؤثرة.

إلا أنه قد وجدت في الصوفية طائفة جمعت بين الزهد والفلسفة والمذاهب اليونانية والهندية القديمة وصاغوها بعبارات صوفية فخرجوا بالتصوف من صورته المحمودة إلى مزالق الكفر والإلحاد كابن عربي (٣) وغيره من الغلاة المارقين الذين قالوا أقوالاً تُخرج عن الملة منها : وحدة الوجود (٤) والحلول والاتحاد(٥)، وأن ما عبده قوم نوح من الأصنام، وما عبده بنو إسرائيل من العجل حَقٌّ مبين، وما عبدوا

---

(١) مجموع الفتاوي لابن تيمية : ١٨ / ١١، وراجع فيه أقسام الصوفية .

(٢) المصدر نفسه : ٢١ .

(٣) ابن عربي : هو أبو بكر بن على الملقب بمحيى الدين بن عربي الحاتمي، من أردأ تآليفه كتاب (الفصوص) توفي سنة ٦٣٨ هـ (سير أعلام النبلاء: ٢٣ / ٤٨)

(٤) وحدة الوجود .. وهي أن وجود المخلوقات هو وجود الحق . (عند ابن عربي ـ راجع : مجموع الرسائل ـ لابن تيمية : ١ / ١٧٢). أو : هي أن الله هو الوجود المطلق والمعين وعليه فإن وجود الله لا وجود له إلا الوجو دألقائم بالمخلوقات. (عند الصدر القونوي ـ راجع : مجموعة الرسائل لابن تيمية: ١ / ٧٧).

(٥) والحلول : وهو اعتقاد حلول الخالق بالمخلوقات. والاتحاد : هو اتحاد بين الخالق والمخلوقات. وهو كما يزعم بعض الصوفية أن الواحد منهم قد يصل إلى مرحلة ينكشف له فيها أن الحق هو الخلق والخلق هو الحق ولا فرق بينهما، بل اثنينية ، فالكثرة متوهمة والحقيقة واحدة. وقد قال بعضهم إن الذات الإلهية تحل أو تتحد ببدن الإنسان أو روحه حينا وتفارقه حينا آخر. (راجع : موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ـ د. احد البناني: ١٧١).

إلا الله الذي تصوروه فيما صوروه. وأن فرعون اللعين كان حين قال: [أنا ربكم الأعلى] محقا حيث إن الله حل فيه ـ كما افتروا ـ وقد كانت جملة هذه الترهات ـ وغيرها ـ في حياة هؤلاء الغلاء الذين خرجوا من العبودية باسم العبودية وانحراف الناس عن العبودية بعد نشأة هؤلاء المتصوفة، وانتشرت أفكارهم في العصور التالية لهم بشكل أوسع وبضلال أشد وفساد أعمق، فقضت تماما على الصورة المحمودة والسمعة الطيبة للأوائل من الصوفية؛ فبنيت القبور والقباب، وانتشرت البدع والخرافات من الحلول والاتحاد والعلم اللدني والوصول إلى الحقيقة الكونية التي تسقط معها التكاليف الشرعية، وألوهية العبد، والتمائم والتعويذات و.... إلخ.

وما إلى ذلك من الخرافات التي لا أول لها ولا آخر، والتي برمتها نعيش بين ظهرانيها وبين الضالين الداعين إليها في كثير من البلدان الإسلامية. وأصبحت الصوفية بصورتها الحالية تساوي الشرك بالله عز وجل، حيث جعلوا الخالق في جميع المخلوقات فلم يفرقوا بين ألوهية الله تعالى التي ينبغي أن تكون له، وبين عبودية العبد تجاه خالقه، فضاعت فيهم العبودية الحقة التي دعا الله تعالى رسله إليها.

وأصبحت الصوفية هي السمة البارزة في العهد العثماني كذلك وهي الطريقة المثلى والصورة الواقعية للإسلام، فضاع فيهم الدين الصحيح واقتصر فهمه ومضمونه على الشعائر التعبدية من الصلاة والزكاة والصوم والحج. وإهمال بقية أحكام الدين من الجهاد والحدود والتعزيرات والحكم بما أنزل الله عز وجل. وركن الناس إلى التصوف حيث التواكل والبعد عن عبودية الله تعالى الحقة. وسلوكيًا فقد أصبح الناس لا شأن لهم بأمور سياسة الدولة وترك أغلبهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم واكتفوا بالشعائر التعبدية، وأصبح مفهوم الدين عند العامة هو المشايخ والأضرحة والتوسل وكرامات الأولياء والمسبحة والبدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ومردودة على أصحابها؛ فانعزل الدين عن الدولة في نفوس كثير من العوام حتى جاءت الغزوات الصليبية الأخيرة بكل ثقلها للقضاء على الإسلام وأهله،

فضاعت الخلافة العثمانية وقضى على الإسلام وانفصل الدين عن الدولة بالفعل بكل صراحة وبكل جرأة على يد كثير من المسلمين..! فضلا عن أعداء الإسلام من الكفار.

وقد كان المسلمون جميعًا مع وجود الانحرافات التي لا تعد ولا تحصى قبل سقوط الخلافة متحدين في كلمتهم وتحت زعامة قائد عام؛ وشريعة الله تعالى والحكم الذي أنزله هو المهيمن على البلاد عمومًا، وكان أعداء الإسلام لا يجرأون على رفع أعينهم أمام تلك القوة على الرغم مما أصابها من الفساد والانحرافات، إذ أنهم موقنون تماما بأن إشارة من إمام المسلمين وقائدهم الأعلى بالتحرك للجهاد كافية بأن يسارعوا إلى الاستجابة والتلبية فينظر أعداء الإسلام إلى الأمة الإسلامية بمجموعها باعتبارها حامية الإسلام والمسلمين، وقد نقل الأستاذ محمد قطب شيئًا يصدق ذلك عن أحد المنصرين قوله : إن أوروبا تفزع من (الرجل المريض)[١] لأن وراءه ثلاث مائة مليون من البشر، مستعدين للجهاد بإشارة من إصبعه[٢].

إن الأسباب التي أدت بانحراف المسلمين لم تكن قاصرة على مجال دون الآخر، إذ لا يُعْرَف في الإسلام التجزئة والتفرقة بين أركانه وأسسه، فالإسلام يشمل عبادة الله تعالى وحده وإفراده تعالى بالعبادة كما يشمل التحاكم إلى ما أنزله في شئون الحياة كلها في جميع المجالات الدينية والدنيوية والولاء للحكومة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله تعالى؛ لذا فإننا نجمل أسباب انحراف المسلمين في بعدهم عن دينهم، ولكنا نجد أن انحراف المسلمين في تحقيق العبودية لخالقهم أكبر من بقية المجالات الأخرى. وصار حال المسلمين اليوم كما قال ربنا: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف: ١٠٦].

---

(١) يقصد به السلطان عبد الحميد ، آخر خليفة للمسلمين في الدولة العثمانية .

(٢) راجع : واقعنا المعاصر ـ محمد قطب : ٣٨٥ .

الانحراف في المجال السياسي:

لعل أول ما بدأ الانحراف في هذا المجال هو انتقال الخلافة من نهجها الإسلامي من اختيار الإمام الذي تتوافر فيه شروط الخلافة، إلى الملك الوراثي. فتوارث بنو أمية وكذلك العباسيون وكذلك العثمانيون الحكم فيما بينهم. فهذه أول مخالفة شرعية كانت على يد الحكام، ومع توالي السنوات أصبحت أمرا واقعًا لم يبد اعتراض عليه منذ بدايته، أو وجد ولكنه تحت القوة والسلطان أرغم الناس على قبوله حتى أصبح تدريجيًا يحل محل الأصل وهو الخلافة الراشدة إن لم يكن هو الأصل.

هذه المخالفة لم تكن وحدها أساسا للإنحراف، ولكنا نلتمس لهؤلاء الحكام العذر فنقول إنهم اجتهدوا في هذا فأخطأوا [١]، وأيًا كان الأمر فحكم الله عز وجل هو الغالب على الدولة ولم يجرؤ أحد من الحكام ـ على مر السنين كلها حتى مع نهاية الخلافة العثمانية ـ أن يُغَيّر أو يُبَدّل حكمًا في كتاب الله تعالى، أو في سُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام أو أن يحكم بأحكام غير شريعة الله تعالى، ولكن وقع بعضهم في مفاسد خلقية ومخالفات شرعية كثيرة وقعت في قصور بعض الخلفاء والأمراء والوزراء حيث كثر فيها شرب الخمر والمجون والجواري والمغنيات والراقصات والشعراء والمنافقون فانشغل الحكام والوزراء بهذه المفاتن وتركت أمور الدولة وضعفت فكان عقاب الله تعالى لها ـ حيث يمهل سبحانه وتعالى ولا يهمل ـ بين الحين والحين بتسليط الأعداء عليهم حتى يفيقوا من غفلتهم ويسترجعوا مجدهم، ولكنهم انحدروا ثانية في الموبقات، وهكذا ومع الأيام استبدلت بعض الأحكام الشرعية بأحكام وضعية، حتى تساوت الأحكام الشرعية مع الأحكام الوضعية الكافرة ثم غلبت بعد ذلك الأحكام الوضعية حتى نُحِّيَت شريعة الله تعالى بالفعل، وتحاكم المسلمون فيما بينهم إلى القوانين والأحكام الكافرة وإلى شريعة غيرهم من الكفار، وهم ـ مع انتشار الفكر الإرجائي

(١) راجع : واقعنا المعاصر ـ الأستاذ محمد قطب : ١١٨ ـ ١٢١ .

فيما بينهم ـ غافلون عما يدور حولهم ولا يعبأون بما حدث في أصل دينهم من تنحية شريعة الله تعالى بل رضوا بالأحكام الكافرة حيث غرس في حسهم على يد أعدائهم وعلماء السُّوء منهم أنهم مع هذا مسلمون كاملو الإيمان ولا يضرهم التحاكم إلى غير ما أنزل الله تعالى كما سنرى بعد قليل في الكلام عن علماء السوء.

كما كان لبطش الحكام بالمصلحين ودعاة الحق، أثر في تقلص مهمة العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاكتفى كثير منهم بالإنكار القلبي الذي هو أضعف الإيمان الذي أخبر عنه ﷺ بقوله: «**من رأى منكم مُنكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»(١).

هذا بالإضافة إلى الاختلاط بالأجناس الكافرة والوثنية وموالاتهم والاستعانة بهم في شئون الحكم والإدارة، فكانت هذه الفئة الكافرة تُظهر العون والمساعدة للخلفاء وإبداء النصح لهم، وهم في الوقت نفسه يُكنّون كل بُغضٍ وحقد ليس على أشخاص الحكام ولكن الحقد على الإسلام المتمثل في هؤلاء الحكام حتى قويت شوكتهم فأفسدوا الحكام والدين بأكمله. فكانت من أسوأ المخالفات التي وقع فيها الحكام وهي الاستعانة ببطانة الكفر التي حذَّرنا اللهُ جل وعلا منها فقال عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ [آل عمران: ١١٨]. وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ [المائدة: ٥١]. وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ**﴾ [الممتحنة: ١].

هذه المفاسد والانحرافات كانت محفوفة بخلافة المسلمين العامة وكلمتهم واحدة، وأما حين سقطت الخلافة، وانقسمت الأمة الإسلامية إلى دويلات

---

(١) مسلم: ك، الإيمان ـ ب: من الإيمان تغيير المنكر باليد واللسان والقلب. (مختصره: ح رقم ٣٤).

مستقلة في الحكم والعرق واللون واللهجة واللغة أصبح أمر حكام المسلمين ـ الذين يحملون أسماء إسلامية ـ في شر مستطير، وبعد عن دين الله تعالى بالكلية ومحاربة له ، والعداء والتنكيل بأهله وبمن يدعون إليه، وإحلال الأحكام الوضعية والأفكار الإلحادية فقست قلوب الحكام وملئت حقداً على الإسلام وأهله وأنهكوا قواهم في تدمير وتحطيم الإسلام وأهله بتحريك من أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والملحدين واجتمع هؤلاء الحكام – إلاّ من رحم الله تعالى – إلى الآن على هدم الإسلام والمسلمين، ولكنهم تفرقوا واختلفوا في الطرق الموصلة لهدف اجتماعهم ، وأصبحت أحكام الدول الكافرة هي التي تعلو البلاد الإسلامية ومالوا بقلوبهم وعقولهم وأجسادهم إلى الكفار وليس الاستعانة بهم فقط، بل بحبهم وإطاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه فأصبحوا ألعوبة في أيدي أعدائهم وأدوا الدور الذي وُكِّلَ إليهم من قبل أعدائهم في القضاء على الإسلام وأهله وإبعادهم عن العبودية الحقة مستخدمين أخبث الوسائل والمخططات في ذلك منها[١]:

١ـ دور بعض الاتجاهات الأدبية والفكرية والإعلامية:

ويشمل الإعلام: الإذاعة والتلفاز والصحف والمجلات. وغيره من المخترعات الحديثة والتي بجملتها في يد الحكام المفسدين في الأرض، فيستخدمونها كيف شاءوا وحيث أرادوا. فنراهم يرفعون كل وضيع، ويحقرون كل جليل، ويجعلون الحقَّ باطلاً والباطل حقا ويزينون للناس المنكر والخبيث، ويتطاولون على دين الله تعالى ورسوله وأتباعه بالسخرية والتهكم والاستهزاء، ابتداء بالتلميح وباللمز والهمز وانتهاء بالتصريح الفاضح في السخرية بالله عز وجل والنيل من أنبيائه[٢].

---

(١) سوف أسرد أهم تلك الوسائل الخبيثة بشيء من الاختصار وما آلت إليه بشيء من الإيجاز، فالكلام عنها منفردة ودورها في الإفساد وانحراف المسلمين يحتاج إلى رسالة كاملة.

(٢) كما فعل طه حسين بتجرأه على القرآن بالطعن فيه في كتابه « الشعر الجاهلي » فيقول فيه : (للتوراة والإنجيل أن يحدثانا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما كذلك، ولكن هذا وذاك لا يثبت لهما وجوداً تاريخيا!) نقلا عن كتاب واقعنا المعاصر : ٢٧٩ .

ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وعاقبهم بما يستحقونه ـ كل هذا بحجة حرية الفكر وحرية الصحافة وحرية الأدب. وتعمل الحكومات ـ إلاَّ من رحم الله تعالى ـ في دفع المسلمين إلى ترك دينهم رُويداً رُويداً كما تبث روح الوطنية والقومية فيهم بدعوى الجاهلية وخروج المرأة من بيتها وابتذالها وخلع حجابها والقضاء على حيائها والرضا بالحكم بغير ما أنزل الله تعالى، والاستهزاء بالدين والداعين إليه والسخرية من علماء الدين والشكوى من صعوبة اللغة العربية التي هي لغة القرآن ـ حتى ينصرف المسلمون عن كتاب ربهم ـ والمساواة بين الرجل والمرأة، وتحديد النسل وعدم تعدد الزوجات، وعدم الطلاق، وعمل المرأة والالتزام بالشعائر التعبدية، وفصل الدين عن السياسة، وصرف الناس عن تعلم العلوم الشرعية وإيهامهم أن تخلف المسلمين اليوم هو ناتج عن دينهم ولابد من التخلي عنه والتبرؤ منه، وإظهار تقدم الغرب التكنولوجي في المجالات العلمية المختلفة والاختراعات الحديثة التي تملأ الآفاق... إلخ.

وتقوم الحركات ببث كل تلك السموم ـ السابقة ـ وغيرها كثير بكل دقة وعناية وتنظيم دقيق ـ والمسلمون في غاية الغفلة ـ وذلك عن طريق وسائل الإعلام(١) المختلفة والأدب والفكر(٢) من خلال برمجة تلك السموم في قوالب

ويقول محمد محمد حسين عن هذا الكتاب وغيره : «وظهرت كتب هزت المجتمع بجرأتها عليه، مثل كتاب: (الشعر الجاهلي) لطه حسين الذي استفز مشاعر المسلمين حتى طالبوا بفصل مؤلفه من الجامعة ومحاكمته ثم وقف الأمر عند الاكتفاء بمصادره الكتاب وجمع نسخه من الأسواق» (أزمة العصر، محمد محمد حسين : ١١٨) وكما حدث على يد نجيب محفوظ في روايته (أولاد حارتنا) التي فيها استهزاء صريح بالله عز وجل وبملائكته ورسله. وكما حدث على يد الفاجر سلمان رشدي في كتابه : (نصوص شيطانية) وفيه استهزاء وسب صريح للأنبياء وبخاصة سيدنا محمد ﷺ والتقليل من شأنه. وغيرهم كثير ممن تطاول على الله عز وجل ورسله والاسلام، ومن العجب أن يكافأ هؤلاء المجرمون المستهزءون على إجرامهم بجوائز، فيمنح الأول لقب (عميد الأدب العربي) ويمنح الثاني جائزة نوبل للآداب، وذلك لسوء أدبه مع الله عز وجل، كما تدافع انجلترا ودول العالم الكافرة عن الثالث وتحميه من أي سوء أو تهديد يمسه !! وإنَّا لله وإنّا إليه راجعون.

(١) واقعنا المعاصر ـ محمد قطب : ٢٣٥ ـ ٢٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ٢٩٥ ـ ٣٠٢ . كتاب الحداثة في ميزان الإسلام : عوض بن محمد القرني.

مختلفة مثل تمثيلية فكاهية أو درامية، أو فيلم سينمائي، أو مسرحية هزلية، أو مقالة أدبية أو قصيدة نثرية أو مقطوعة شعرية أو مجلة نسائية، وتنتشر هذه السموم بين جميع الفئات بسرعة البرق، وذلك بسيطرة الحكومات على أجهزة الإعلام المختلفة ويضحكون على العامة والمثقفين بأن بلادهم بلد الحريات ويعنون بها حرية الصحافة في سب الذات الإلهية والنيل من الأنبياء، وحرية الفكر في سب الإسلام وأهله ـ وحرية الجنس، وحرية علاقات الجنسين ـ البريئة طبعاً!! وحرية التعليم،وحرية المرأة وحرية الغناء والرقص، وحرية الإلحاد، وحرية... إلخ.

أما حرية التدين بالدين الإسلامي الحنيف، وحرية الدعوة إليه، فهذه الحرية مقيدة!! دون غيرها من الحريات، ومحاربة ومُجْمَعٌ على إبادتها وسحقها، ومن يدعو إليها وإن اختلف الطرق بين الحكام، كما أسلفنا.

إننا نلحظ في الآونة الأخيرة ـ وهو ما يهمنا في الوقت الحاضر ـ تحالف وسائل الإعلام ـ سواء المقروءة أو المسموعة أو المرئية ـ على هدم الإسلام والمسلمين، حتى استطاعوا أن ينفذوا خلال فطرة الأطفال قبل الكبار لمحوالفطرة التي فطروا عليها، وهي الإسلام التي أخبر عنها ﷺ في الحديث فقال: «**كلُّ مولود يُولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١)، فبدلوا هذه الفطرة وغيرها بعقائد وثنية وفلسفية لينشأ الأطفال عليها منذ الصغر. وقد وضعت في قوالب ظاهرها التسلية والفكاهة والتعليم ولكنها تحمل في باطنها كل خبيث يدمر أطفال المسلمين، وقل ما ينتبه أحد لتلك المخططات التي يعرضها أعداء الإسلام للقضاء على الإسلام وأهله ، وأنا أعني بصفة خاصة في الصفحات التالية الإعلام في برامج الأطفال ، فإذا اتضحت لنا الصورة في برامج الأطفال سوف يتضح لنا المعالم كاملة في البرامج كلها بصفة عامة(٢).

---

(١) صحيح الجامع : ح ٤٤٣٥ ، ٤٤٣٦ .

(٢) استفدت في هذا الموضوع من بحث قيم للدكتور فاروق الدسوقي في سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، قدم لمكتب التربية العربي لدول الخليج، مع أبحاث قيمة أخرى في ندوة كان عنوانها : (ماذا يريد التربويون من الإعلاميين) ؟ الجزء الأول ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية.

إن المتتبع لبرامج الأطفال المقدمة من خلال الإذاعة والتلفاز والمجلات ليجد العجب في خرق العقيدة الإسلامية ودس الوثنية والإباحية والإلحاد بين الأطفال منذ الصغر.

أولاً - الإذاعة :

وفيها محاولة وضع تمثيليات وقصص في الأغلب أنها مترجمة، يحاول فيها نشر الأفكار المخالفة لعقيدة الإسلام عن طريق غير مباشر حتى تصل الأفكار في أذهان وقلوب الأطفال ولا يعترض على القائمين أحد، فينشرون التفسير بالتطور، ونسبة الفعل للطبيعة، وتفسير الأحداث البشرية بالحظ والصدقة، وهذا يلغي الإيمان بقدرة الله عزوجل وقضائه وقدره، وهذا من أصول الإيمان التي يجب الإيمان بها.

ثانيًا - التلفزيون:

وهو أكثر خطرًا وأشد فساداً من الإذاعة حيث تجتمع فيه حواس السمع والبصر ومن خلال الإثارة بالحركات والصور التي هي أشد خطرا في التأثير على حركات الأولاد في حياتهم اليومية. فتعرض فيه قصص مصورة وألعاب مسلية، ومسابقات وفوازير ، يغلب عليها طابع القيم والأهداف القومية والانتماء العرقي، وهو مخالف بجملته شريعة الإسلام، والبرامج المقدمة في الدول العربية نلحظ خلوها تقريبا من الأهداف التربوية الإسلامية فهي لا ترمي إلا إلى التسلية والفكاهة كألف ليلة وليلة، وحكايات السحر، وحكايات الشاطر حسن، حتى برنامج (افتح يا سمسم) وهو أمريكي الأصل تغلب عليه الأهداف التعليمية بينما تندر أو تنعدم إبرز الأهداف الإسلامية السامية، وفي بعض هذه البرامج تبرز أهداف وقيم بعيدة عن الاسلام وإن كانت تسمى قِيمًا مثل: حب العمل واحترام العمل والنظافة والنظام. فإن غرس هذه القيم على أساس الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وما عند الله عز وجل من الثواب في عملها والعقاب في تركها يجعل لها صفة الاستمرارية والدوام بعكس أن تقوم على أساس الأخلاق

العلمانية ـ اللادينية ـ التي تدعو إلى المصحلة الفردية والجماعية وإصلاح المجتمع فقط دون أن يهمها ألبتة رضا الله عز وجل وثوابه، والأهم في تلك البرامج وأشد خطراً على عقيدة الأطفال هي البرامج التي يغرسون فيها الإلحاد والكفر بالله جل وعلا بما فيه بعد تام عن العبودية الحقة . فمثلا :

[١] عُرِضَ أكثر من مرة مسلسل كرتوني بعنوان "GOD ZELLA" أي (الإله زيلا) تدور مضمون القصة حول أسرة تجوب البحار والمحيطات ثم تعترضها وحوش خرافية للباخرة تهدد هذه الأسرة فلا ينقذها إلا (الإله زيلا) الذي تستدعيه الأسرة البشرية أو تدعوه بجهاز إلكتروني فيجيب في الحال وينقذ الجماعة البشرية من الوحوش المعترضة بالصراع معه ثم بهزيمتهم؛ ولهذا الإله (زيلا) ابن يصاحبه الجماعة البشرية يدعوه أيضا فيجيب وهي صورة مصغرة لما يعتقده النصارى في الأب والابن، ولاشك أن هذا تصور وثنيّ للألوهية عنوانًا وشكلاً وموضوعًا، إن لم يفهمه الطفل العربي بسبب اللغة فإن الأحداث والمشاهد أمام الأعين تترك بصماتها في نفسه مما يشكل خطراً على فطرته الموحدة، إذ يكفي في تصور الطفل أن هناك كائنًا بهذه القوة وبهذا النفع للإنسان يُدعى فيُجيب في الحال فيكون ذلك جرحًا وخدشًا لفطرة التوحيد التي هو عليها.

[٢] المسلسلات الخاصة بحروب الفضاء، وهي من أخطر المسلسلات إفسادا للعقيدة. فقد وضعوا أسلوب الإثارة فيها بكميات هائلة لجذب أكبر كمية من المشاهدين حتى انكب عليها الكبار قبل الصغار.

وهي تقوم على افتراض وجود أعداء للبشر في كواكب أخرى ويهددون سكان الأرض، وهذا الافتراض مخالف للواقع الكوني الذي أخبرنا عنه عز وجل في القرآن والسنة، فالمخلوقات الحية في هذا الكون الملائكة والجن والإنس والحيوانات، فلم يخبرنا الله عز وجل ولا رسوله ﷺ عن مخلوقات فضائية سوف تغزو الأرض، فذلك الإعتقاد الفاسد بوجود مخلوقات فضائية من شأنه أن يجعل

الأولاد يعتقدون بالتفسير الأسطوري الخرافي لنشأة الكون، ومحو ما ثبت بالقلوب في أن كل شيء في الكون قد تم ـ ويتم ـ بأمر الله تعالى وإرادته، ومن النتائج الخطيرة لهذه البرامج هو صرف عقول الأولاد وقلوبهم عن معرفة العدو الحقيقي من شياطين الإنس من اليهود الذين اعتدوا على القدس الشريف والنصارى الذين يكيدون لهدم الإسلام وأهله إلى تصور عدو وهمي قادم من الفضاء لغزو الأرض وإهلاك البشر .

ثالثا - الصحافة :

يبقى معنا دور صحف ومجلات الأطفال المعروضة في الدول العربية وأكثرها يصدر من بيروت حيث الإلحاد والإباحية والنصرانية الحاقدة على الإسلام وأهله، ومن أبرز الأدلة على ذلك استخدامهم أسماء غير إسلامية ولا عربية. هي في مجملها ليس لها علاقة بالقيم والأهداف الإسلامية، إلا أهداف القوة والعنف، وإبراز السوأتين بشكل فاضح للجنسين من خلال الملابس الضيقة المشاهدة في الصور الملونة.

لا شك أن لهذه المجلات دوراً إيجابيًا لا ننكره في تعود الطفل على القراءة مما يفيده في دراسته. ولكن هذه بمثابة نقطة بيضاء من سيل جارف مدمر أسود. هذا بالإضافة إلى استعمال اللغة العامية في بعض المجلات حتى يصرف الأطفال منذ الصغر عن التكلم باللغة العربية، ومن ثم عدم فهمهم كتاب الله عز وجل، وهذا ما يحلم به أعداء الإسلام في بعد المسلمين عن لغتهم حتى ينصرفوا عن قرآنهم، وهم يفعلون العكس تماما، فنجد إلزام اليهود بتعليم اللغة العبرية في مراحل التعليم المختلفة للاحتفاظ ـ كما يدعون هم بأنفسهم ـ بلغة كليم الله .

إلا أننا نجد بعضا من هذه المجلات مثل : (سعد) ، (ماجد) تعني إلى حد ما بالقيم الإسلامية وصياغتها باللغة العربية وإرفاق جزء خاص بالمعلومات الدينية من تفسير لآية أو ذكر لحديث ، كما ترفق مجلة (سمير) صفحتين بالمعلومات الدينية تحت عنوان (أحباب الله) .

هذا ملخص إجمالي عما يجري بخصوص إفساد الأطفال وتضليلهم منذ الصغر من الجانب الإعلامي. ومما يجدر الإشادة به في جانب الإعلام أن هناك بعضا من البرامج الناجحة والتي لها دور مثمر في البناء والوقاية وهي ما يقوم به الإعلام السعودي في برنامج (في ظلال القرآن)، و (ناشئ في رحاب الله)، في تقديم الأطفال الذين يحفظون كتاب الله عز وجل، وهذا يشجع على حفظ القرآن الكريم وتجويده بين النشء، كما يوجد برنامج (أبناء الإسلام) وهو برنامج إسلامي ناجح تقوم به رابطة العالم الإسلامي، له فوائد وأهداف إسلامية كثيرة، كما تقوم وزارة الحج والأوقاف بالسعودية بالمسابقة العالمية لحفظ كتاب الله تعالى وتفسيره وتجويده سنويًا، وهذا مما لاشك له ثمار طيبة بإذن الله تعالى.

وهذا يدعونا إلى وجود طبقة إسلامية مثقفة واعية غيورة على الإسلام وأهله تقوم بإعداد برامج وحلقات وأعمال فنية تلفزيونية كانت أم إذاعية في إطار الشريعة السمحة وحدود الكتاب والسنة لتوجيه الإعلام الوجهة السلمية لتربية الأطفال بصفة خاصة منذ الصغر على القيم الإسلامية والاحتفاظ بعقيدتهم الفطرية وإنمائها، فهذا هو الحل[1] الأمثل فكما يقولون: «التعلم في الصغر كالنقش على الحجر».

وبهذا نصل إلى نهاية الكلام عن دور الإعلام في الإفساد باعتباره أحد أسباب الانحراف التي أدت إلى بعد المسلمين عن العبودية الحقة، واكتفيت بتوضيح الانحراف في وسائل الإعلام من جانب ما يعرض للأطفال لتبديل فطرتهم، فيتبين من باب أولى ما حدث للكبار ـ ويحدث ـ من مسخ لفطرتهم وانحراف لأخلاقهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) هذا وإن كنا نتحدث عن أسباب الانحراف، فإن هذا الحل يضم مع المبحث الثالث من هذا الفصل والخاص بطريق النجاة. وأما ذكره هنا فقد استدعته الحاجة.

٢ ـ دور الأغاني والتمثيل:

لقد قام دور الفن ـ على زعمهم ـ الباطل ـ على يد الفنانين ـ الفتانين ـ بالمهمة التي أسنتدتها الهيئات اللادينية إليهم في توصيل الأفكار الخبيثة لإفساد المسلمين ولإبعادهم عن عبوديتهم لله جل وعلا، إما عن طريق كلمات رقيقة ماجنة بصبها في قالب يسهل حفظها وترادها على الألسنة بما يسمى بالأغاني، أو بصبها في قالب مرئي يثبت في الذهن عن طريق الحركات والمشخصات وتحرك النساء وميلهن بما يثير الشهوات ويفسد الأفئدة والعقول بما يسمى بالتمثيل، فكل ما ترغب فيه تلك الهيئات من توصيله من أفكار لتفسد على المسلمين دينهم، فإنهم يروجونها عن طريق الإعلام والفن. فنجد أنه ما تخلو دولة الآن من تمجيد لقوميتها ووطنيتها واعتزاز لتقاليدها، ورفع لأصالتها، عن طريق ما يعرف: بالسلام الجمهوري على عزف الموسيقى وتمجيد الدولة بالنشيد الوطني الذي يحفظه أبناء الأمة ويُدَرَّس ويُحفظ منذ الصغر في المدارس.

وفى هذا تمجيد وإجلال وتعظيم للمخلوق من دون الله عز وجل وتعدي على العبودية الحقة لله عز وجل، كما يفخر الكثيرون بوطنهم وينشدون لذلك القصائد والأغاني فينشأ الشباب على حب الوطن ويشيب الشيبان عليه، ويضيع الإنتماء إلى الإسلام ويحل محله الولاء للوطن وفداؤه بالروح والدم ـ كما يزعمون ـ .

ومما أدخلوه في قلوب وعقول المسلمين ـ إلا من رحم ربك ـ استخفافا بدينهم وضحكا عليهم ماسموه (بالأغاني الدينية) ، والدين منها ومنهم برىء . وهي في جملتها بُعْدٌ صريح عن عبودية الله تعالى الحقة وكفر به سبحانه والتوسل بغيره جل وعلا [١].

فينتشر بين العوام الاستعانة والاستغاثة بغير الله جل وعلا. كما يقوم دور

---

(١) منها قول أحدهم : أنا جيت أزورك يانبي وأقول مدد مدد يانبي ... يا نبي مدد.

الفن بترويج الإلحاد والإباحية والسخرية بعلماء الدين عن طريق الأفلام السينمائية والتمثيليات والمسرحيات، مما يشكل خطرا على عقيدة المسلمين فيسبب جرحا في فطرتهم الموحدة وخدشا في حيائهم ، فيخرج من حيز الكتابة إلى السماع في الإذاعة حتى إذا ما رأى الناشئ هذه الموبقات على شاشة التلفاز أو السينما أو على المسرح اشتاقت نفسه إليها وإلى محاكاة ما يرى وما يسمع ، فيصبح الفسق في المجتمع أمرًا واقعيًا اعتاده الجميع ـ إلا من رحم ربك ـ والذي يخرج عن ما ألفه الناس من الفسق والفجور يعتبر شاذًا متشددًا .

وينقل الأستاذ محمد محمد حسين كلامًا موافقًا لما سبق بيانه فيقول: «قد يعبس الفتى أو الفتاة حينًا إذا قرأ أو قرأت مجونًا جريئًا عريانًا . ولكن إذا ألفت العين والنفس أمرًا كان مبعثاً للحياء أمس، فقد لا تلبث العين والنفس أن تنزعا إليه وتطلباه . فإذا فقدت النفس نفورها من قراءة المخازي وتصور معانيها، فقد هانت عليه المرحلة التالية، وهي التلبس بهذه المعايب سلوكًا وعملاً، وإذًا فعلى الصون والعَفَاف ألف عفاء»(١).

إن ما في وسائل الإعلام من برامج وأفلام وتمثيليات لكاف في إفساد المسلمين، ولكن أعداء الإسلام لم يكتفوا بذلك بل زادوا أمرًا عجبًا اجتمع المسلمون ـ وغيرهم ـ عليه وتكاتفوا ودافعوا عنه بأغلى ما لديهم من نفس ومال، وهو الرياضة، وهو إله ـ طاغوت ـ عبد من دون الله عز وجل في واقعنا المعاصر، وتنفق الأموال الطائلة في سبيل إعلائه في الوقت الذي تحتاج بعض البلاد الإسلامية التي أصابها الجفاف وبها مجاعات إلى عُشر ما ينفق في الرياضة، هذا مع ما أُلحِقَ بالمسلمين ـ إلا من رحم ربك ـ من تركهم صلاتهم وعبادتهم لله عز وجل أثناء المباراة أو قيامهم بعد منتصف الليل لمشاهدة مبارة منقولة عن طريق القمر الصناعي ـ الذي وضعه الكفرة والملحدون للفساد والإفساد ـ ثم ينامون بعدها ولا يقومون لصلاة الفجر ـ إن كان يصلون الصلاة التي أخبر النبي ﷺ

(١) أزمة العصر ـ محمد محمد حسين : ٢٤٦ .

عنها بقوله : «**إنَّ أثقلَ صلاة على المنافقين صلاةُ العشاء وصلاةُ الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبْواً ، ولقد هَمَمْتُ أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حِزَم من حَطَب إلى قومٍ لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار**» (١).

ومن العجب من مشجعي الفنانين ومشجعي الرياضة أنهم يقتلون أنفسهم بأنفسهم بفقد أحد المغنيين أو فوز أحد الفرق أو الفريق القومي للبلد (٢).

٣ ـ دور المناهج والتعليم:

يعتبر هذا الدور من أخطر الأسباب تأثيرا في الانحراف ، وقد استغله أعداء الإسلام أنجح استخدام، فقد استطاعوا على المدى البطيء والبعيد والمتدرج صرف أبناء الإسلام عن دينهم وبعدهم عن تحقيق العبودية الحقة لخالقهم فضلا عن صرفهم عن المعرفة بها ودس أفكار ونظريات الإلحاد في أذهان وقلوب النشء المسلمين لينسلخوا بذلك عن دينهم بالكلية، وهو ما حدث بالفعل على مر قرنين من الزمان منذ أن غزا أعداء الإسلام أرض المسلمين ـ بسبب غفلة المسلمين عن دينهم وبعدهم عن تحقيق العبودية الحقة لخالقهم ـ إلى وقتنا هذا؛ فأنتج هذا العمل الدائب من أعداء الإسلام جيلاً ملحداً بنسب كبيرة بين من يُسمُّونَهُم بالمثقفين، بعيداً عن أدنى انتماء للإسلام ولأهله سوى الأسماء الإسلامية، فانكبوا على ما وضعه لهم أعداء الإسلام من مناهج لصرفهم عن عبوديتهم لخالقهم

---

(١) بخاري : ك : الصلاة ـ ب : فضل صلاة العشاء في جماعة ، مسلم : ك : الصلاة ـ ب : التشديد في التخلف عن صلاة العشاء والصبح في جماعة . (مختصره : ح٣٢٥). واللفظ لمسلم .

(٢) كما حدث عند وفاة المغني المصري عبد الحليم حافظ أن انتحرت فتاة حزنًا على فراقه حيث استحالت الحياة بمفارقة حليم! وكما يحدث أيضا من التشجيع الحار عند فوز أحد الفرق أو الفريق القومي للبلد بطريقة جنونية تسبب حوادث جمة ويموت فيها أفراد كثيرة ، أقربها ما حدث بالعراق من وفاة وإصابة أكثر من مائة مصري، كان يتهللون بفوز الفريق المصري لدورة كاس العالم ! والله لا أدري كيف سيقابل هؤلاء الفسقة ربهم يوم الحساب حين يسألون؟!! إنه لبعد عن عبودية الله تعالى الحقة التي يجب على المسلمين معرفتها أولاً ، ثم العمل بها وتحقيقها حيث هم بعيدون كل البعد عن حقيقتها ومعرفتها ـ إلا من رحم ربك ـ نسأل الله العافية والسلامة.

اعتمادا على التجربة والمشاهدة في المعامل والمختبرات وافتتانًا بما وصل إليه الغرب من تقدم تكنولوجي راغبين اللحاق بهم بشتى الطرق ولو على حساب دينهم إن كان هو الثمن ، ونسوا وأغفلوا أن ما عليه الغرب من تقدم كان بسبب ما أخذوه من المسلمين من علوم في الأندلس، وبسبب ما رأوا في دينهم ـ النصرانية ـ من انحرافات جمة جعلتهم يتمردون عليها وعلى الدين بأكلمه بتركه بالكلية. فلا يحق لنا أن نلطخ ألسنتنا فنقول: إنه لا تقدم للمسلمين إلا بتركهم دينهم كما فعل الغرب الذين تقدموا بتركهم دينهم، فأولئك الكفرة قد تركوا دينًا قد شُوِّهَت معالمه وهُدِّمَت دعائمه، أما نحن المسلمين فلا ينبغي لنا بحال أن نترك ديننا بحجة التقدم . فإنه لا شيء لنا إلا الذل والهوان والتأخر بتركنا ديننا، فعزتنا وتقدمنا نابع من التزامنا بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غير الإسلام أذلنا الله تعالى. ولكن أعداء الإسلام استطاعوا أن يزرعوا هذه الفكرة في أرض المسلمين وأتت ثمارها الخبيثة بين كثير من المسلمين.

فمن الوسائل التي وضعها أعداء الإسلام في المناهج الدراسية على مستوى المراحل الدراسية المختلفة ما يأتي :

[١] تشويه التاريخ الإسلامي وإبراز الخلافات التي وقعت بين المسلمين عند مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإبراز حالة التحلل الخُلُقي والإنحلال التي نُسِبَت إلى بعض الخلفاء والأمراء، وإظهار الشعر القبيح بما فيه الغزل الفاضح.

[٢] وضع مادة التربية الدينية والتي من خلال تسميتها نستشعر الغرض منها وهو التهذيب للنفوس فقط لا غير، بحيث لا تتعدى المادة إبراز ألوهية الله عز وجل ، وإبراز التحاكم لشريعة الله تعالى المنزلة، وإظهار مبدأ الولاء والبراء في الإسلام، فيكفي في وضعها في المناهج الدراسية صورتها فقط؛ لذا فهي مادة غير إجبارية !! وغير داخلة في المجموع الكلي.

[٣] وضع أبواب في دراسة الربا بأنواعه في المناهج الدراسية لمادة الرياضيات، بما

يطلق عليه ـ استخفافًا وتدليسًا ـ الفائدة، فتُدَرَّس للطلاب والتلاميذ الصغار الفائدة المركبة والبسيطة، وكأن الربا أمر حتمي في الوجود الخارجي للمجتمع ولا شأن للدين في التحريم، بل ولا يذكر ألبته شيء عن حكم الإسلام في الربا، وأعموا التلاميذ عن حكم الإسلام الحقيقي لتلك الكبيرة، وهي الربا فسموها بالفائدة أو بالربح، وشتّان بين هذا وذاك، قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

[٤] كما وضعوا في مادة (الطبيعة) بأن المادة لا تَفنى ولا تخلق من عدم. فنسبوا إلى الطبيعة الألوهية كما نسبوا إلى المادة القدم والأزل. لأنه على زعمهم وزعم الكفرة أمثالهم من الفلاسفة أن ماجاز عدمه استحال قدمه، وعليه فإن ما يبقى ولا يفنى فهو قديم. فكما نرى أنها محاولة لإلغاء الإعتقاد بألوهية الله عز وجل. والدارسون لا يهمهم سوى التعلم دون أن تمر تلك المفاسد على عقولهم فينتبهوا.

[٥] كما يدرس في المناهج الدراسية نظرية النشوء والإرتقاء، وأن أصل الإنسان قرد وتطور في خلال عصور مختلفة إلى صورته الحالية، ويدرسها الطلاب وكذلك يسقيها المعلمون لهم في مادة (الأحياء) ولا تهتز لهم جارحة لذلك الإد المفترى الذي يخدش عقيدة التوحيد التي فطروا عليها بما تحمل هذه النظرية من سموم تعمل على إهدار الإيمان بألوهية الله تعالى وعبودية العباد لخالقهم؛ إذ ينفون بتلك النظرية الفاسدة القدرة الإلهية وتدبيره جل وعلا للمخلوقات حيث زعموا فيها أن النشوء والإرتقاء ذاتي في الحيوانات. وهو تعدي صريح على ألوهية الله جل وعلا.

إلى غير ذلك من الوسائل الخارجة عن الإسلام التي يستخدمها ويضعها أعداء الإسلام في إفساد الإسلام وأهله والتي مازالت تُدَرَّس في كثير من البلدان التي أغلبية قاطنيها مسلمون، ومجموعها يستهدف صرف المسلمين عن عبوديتهم الحقة تجاه خالقهم جل وعلا.

المجال الاقتصادي:

ازدادت رقعة الأراضي الإسلامية التي سيطر عليها المسلمون طيلة قرون، وقد أدى ذلك إلى وجود أموال كثيرة تدفقت من موارد الفيء والخراج والجزية والغنائم والزكاة ومن التجارة وازدهار النشاط الصناعي، إلا أنه قد استأثر بها طبقة الحكام واستخدمها معظمهم في ما لا يرضي الله تعالى من الترف والبزخ والمفاسد كالغناء والرقص والشعر واللهو والترفيه اللاخُلُقي - إلا من عصمه الله تعالى من ذلك -.

ومع زيادة الأموال يكثر الفساد والإفساد، حيث إن الترف مجلبة للفساد - في غالب أحواله - ومدعاة للإنحلال الخلقي وحياة المجون، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** (١٦) ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقد كان هذا الانحراف وتلك المفاسد ظاهرة بشكل فاضح في قصور كثير من الخلفاء والأمراء حيث كثر فيها الشراب والمغنيات والجواري الراقصات والشعراء المرتزقة. فانشغل الحكام والوزراء والأمراء بهذه المفاتن وتركت أمور الدولة وضعفت ، وكان عقاب الله تعالى لها حيث يمهل ولا يُهمل أن سلط عليهم أعداءهم فأذاقوهم أشد العذاب والهوان، فأصبح المسلمون بتركهم دينهم وبعدهم عن تحقيق العبودية الحقة لخالقهم جل وعلا - في ذُلٍّ قد وَقَرَ في قلوب العديد منهم إلا من رحم ربك إلى يومنا هذا، نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

المجال الفكري :

وهو ظهور الفرق التي لا أول لها ولا آخر ، والتي أخبر النبي ﷺ بقوله : **«ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة»** (١).

ولهذا السبب زاد المسلمون انحرافًا عن دينهم وبعدًا عن تحقيق العبودية الحقة

---

(١) الشريعة للآجري : ١٨ ، السلسلة الصحيحة: ٢٠٤ .

لله تعالى، فدبت فيهم الفرقة والاختلاف وزادت بينهم الشُّقَّة والنزاع. فأصبحت كل فرقة تدعو إلى منهج خاص بها ولها أتباع ، وتكفر مخالفيها وتدعي بأنها الفرقة الناجية دون غيرها، وكُلَّما ازداد المسلمون بعداً عن عبوديتهم لخالقهم ازدادت دائرة التفرق والتحزب . وما زلنا إلى يومنا هذا نرى ظهور فرق جديدة تعمل في التمزيق والتفريق فيزداد بذلك رصيد الفرق ويزداد الخلاف!!

دور الموالي في خط الانحراف:

يعتبر دور الموالي أحد الأسباب الرئيسية في انحراف المسلمين عن دينهم . وهذا السبب لانستطيع أن نعممه على جميع الموالي ولا يمكننا التغافل عنه بحال إذ تشهد الوقائع التاريخية على تأثيرهم في دين الله تعالى بين شذوذ الغلو وأفكار التفريط على يد الفرق الضالة التي ظهرت باسم الإسلام ابتداءاً بمقتل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه على يد أبي لؤلؤة المجوسي الفارسي، وانتهاءاً بغلاة الشيعة الإثنى عشرية، وكذا تفريط البهائية والقاديانية[١]. التي تدعمها إنجلترا الصليبية ومركزها في الدعوة. وبين البداية والنهاية أسماء فرق وجماعات لا حصر لها في الضلال والغلو والتفريط. والسبب في إشاعة الانحرافات بين الموالي يرجع إلى أمرين.

أحدهما : حقد دفين للإسلام وأهله .

ثانيهما : رد فعلي عكسي لِما فعله بهم الأمويون .

■ أما الأول فكما يرجح الأستاذ محمد قطب [٢] بأنه قد كان الفرس من قبل ينظرون للعرب نظرة احتقار وازدراء مبعثها أنهم دولة ذات عراقة تاريخية

---

(١) البهائية : تنسب إلى حسين على الملقب بالبهاء وسُمّيت حركته بالبهائية وله كتاب سماه (الأقدس)، وتوفي سنة ١٨٩٢م . يقولون بالحلول والاتحاد وتناسخ الأرواح، نشأت هذه الحركة سنة ١٨٤٤م. تحت رعاية الإنجليز واليهود بهدف إفساد الإسلام .

القاديانية : حركة نشأت سنة ١٩٠٠م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي بهدف إبعاد المسلمين عن فريضة الجهاد، مؤسسها غلام أحمد مرزا القادياني. يبيحون الخمر والأفيون والمسكرات. الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة عن البهائية ـ ص٦٣ ، القاديانية ـ ٣٨٩ .

(٢) واقعنا المعاصر: محمد قطب ١٢٢ ـ ١٢٣ .

وحضارة علمية، بينما كان العرب هم أولئك الحفاة الجفاة المتخلفون بكل مقاييس الحضارة المادية التي وصل الفرس القمة إليها ، فلما جاء الإسلام تغيرت المقاييس والمعايير وجاءت الفتوحات وانهزم الفرس هزائم ما كانوا يتوقعونها ودخلوا في دين الله تعالى، ولكن الجيل الأول منهم رغم دخوله الإسلام كان ينطوي ولاشك على ضغينة للعرب المسلمين الفاتحين.

■ وأما الأمر الثاني فقد عمدت الدولة الأموية إلى كبت الفرس وعدم السماح لهم بتولية الوظائف الخاصة بالدولة. فكان لهذه المعاملة أثر عكسي في نفوس الفرس الذين أسلموا إذ أنهم لم يجدوا معاني الأخوة الإسلامية وإذابة الفوارق بين المسلمين المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله: ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [التوبة : ١١].

ولست هنا بصدد سرد تاريخي للأحداث ولا للأسباب التي أدت إلى انحراف المسلمين. إنما أعنى بصفة خاصة ذكر أهم الأسباب حسب ما رأيت ـ ورآها غيري ـ دون التعرض للحشو التاريخي لها.

وحقا فإن دور الموالي على مر العصور له أكبر الأثر والأهمية الكبيرة في انحراف المسلمين، هذا لا يجعلنا نغالي في هذه الحقيقة، إذ خرج من بين تلك الأمة ـ الفرس ـ أعلام[1]، يشار لهم بالبنان على مر العصور الإسلامية وكانوا هداة

---

(١) فقد وجد فيهم رجال يحملون سُنَّة المصطفى ﷺ ويذُبُّون عنها وأجمعت الأمة على ما دونوه كاصحاب الكتب الستة وهم : محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري ، وأبو داود السجستاني ، وأبو عيسى الترمذي، والنسائي وابن ماجه وغيرهم كثير من الأعاجم عمومًا ممن له دور كبير في التاريخ الإسلامي ولعلّي أذكر من العصر الحديث الشيخ أبا الأعلى المودوديّ، وأبا الحسين الندوي فصدقت بذلك نبوءته ﷺ ، كما نقل ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح : ٨/٦٤٣، بأنه قد وقع ماقاله النبي ﷺ عيانا فإنه وجد من اشتهر ذكره من حفاظ الآثار والعناية بها ما لم يشاركهم فيه كثير من أحد غيرهم.

مهتدين حملوا لواء الاسلام ودافعوا عنه . وبين لنا النبي ﷺ فضلهم فيقول أبو هريرة رضي الله عنه : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة فلما نزلت : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة : ٣] قالوا: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال - وفينا سلمان الفارسي (١)، فوضع النبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: **«لو كان الإيمان عند الثُّرَيَّا لنالَهُ رجالٌ من هؤلاء»** (٢).

فمن مظاهر نبوءة النبي ﷺ في عصرنا الحديث ما جرى في أفغانستان على يد المجاهدين الأفغان ضد العدو الملحد الشيوعي، وما حققوه من انتصارات أذهلت الأعداء قبل الأصدقاء، نسأل الله تعالى أن يؤيدهم ويخزي عدوهم.

إن دور الموالي كأحد أسباب الانحراف يعتبر سببًا اجتماعيًا لما فيه من العنصرية التي ظهرت في المجتمع بين العرب وأنفسهم ، وبين العرب والفرس ، والتي أدت إلى التفرقة والنزاع والحقد ، مما كان له الأثر السيئ الذي أدى بالفرس - عمومًا - إلى الكيد للإسلام وأهله ويتحينون الفرص لهذا الإفساد .

علماء السوء:

أما علماء السُّوء الذين تسلطوا على المسلمين وأصبح تنصيبهم من قبل الحكومات اللادينية التي جعلتهم رجال دين اتِّباعًا لصنيع اليهود والنصارى، فقد ضاع إيمانُ كثير من المسلمين على أيديهم، فجرى هؤلاء العلماء وراء الشهوات والأهواء والشهرة، وباعوا دينهم بدنياهم بثمن بخس دراهم معدودة.

فلا حكم ولا رأي إلا لهم، ولا شكل للدين إلا بهم، ولا يُستفتَى إلا إياهم ، فلا علماء في نظر العامة إلا هم ، فأفسدوا في دين الله تعالى، وأفتوا بما يوافق

---

(١) هو : أبو عبد الله ، ويقال له سلمان الخير، أصله من أصبهان، أول مشاهده الخندق . توفي سنة ٣٤هـ . (تقريب التهذيب : ١/٣١٥).

(٢) بخاري : ك : التفسير - ب : قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الجمعة : ٣]. ومسلم ك : فضائل أصحاب النبي ﷺ - ب : ماذكر في فارس . (ومختصره / ح١٧٥١).

أهواء الذين يوالونهم من الحكام، ابتداء بأحمد بن أبي دؤاد[١] الذي كان يجادل علماء السنة في القول بخلق القرآن، وغيره من علماء السوء الذين كانوا يمثلون بطانة السوء للحكام على مر التاريخ إلى أن وجد منهم في القرون المتأخرة والأيام التي نعيشها من يتصدر للإفتاء للأمة، ومنصوب من قبل الحكومة التي لاتحكم بما أنزل الله تعالى حتى انتشرت الفوضى على يد كثير من علماء السوء، فدعا بلسانه وبقلمه إلى دفع المرأة إلى السّفور وإلى الاختلاط، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس فقال: إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم !![٢]، وآخر يدعو إلى نزع الخلافة من الأتراك، كما يدعو إلى الماسونية في تآخي الأديان[٣].

وآخر يقول كلامًا ما أنزل الله به من سلطان: إن الإنجليز أولياء أمورنا في الوقت الحاضر ولا ينبغي أن نحاربهم ونقاومهم، إنما واجبنا أن نتعلم منهم، ثم نتفاهم معهم لتصفية ما بيننا من خلاف![٤].

فكما نرى الفوضى التي وصل إليها علماء السوء والتي ليس لها حد، وأمثلتها ليس لها عد، حتى جاء في عصرنا الحديث من يبيح الطواف حول ـ ما يزعمون ـ ضريح الحسين[٥] بالقاهرة، ويجعل ذلك تبركا به للتقرب إلى الله تعالى.

وأصبحت هذه الفئة من علماء السوء الذين يوالون حكامهم بغير ما أنزل الله

---

(١) هو القاضي الكبير أبو عبد الله أحمد بن فرج بن حريز الإيادي البصري ثم البغدادي، الجهمي، عدو الإمام أحمد بن حنبل، كان داعية إلى خلق القرآن، ولد سنة ١٦٠هـ بالبصرة، وتوفي سنة ٢٤٠ هـ (سير أعلام النبلاء ـ الذهبي: ١١/ ١٦٩ – ١٧١).

(٢) نقلاً عن واقعنا المعاصر ـ لمحمد قطب، حكاية عن رفاعة رافع الطهطاوي أحد علماء الأزهر الذين تشربوا بفساد الغرب.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٩، حكاية عن جمال الدين الأفغاني.

(٤) المصدر السابق: ٣٠٧، عن أستاذ الجيل: لطفي السيد.

(٥) هو: الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي سِبط رسول الله ﷺ وريحانته، استشهد سنة ٦١هـ (تقريب التهذيب: مجلد ١٧٧/ ١).

تعالى ـ هي الحجة على الدين لدى عامة الناس، فوجد مرضى القلوب مهربا من التكاليف ورخصة في الإنغماس في الشهوات والمعاصي، فإذا اعترضتَ على فعل أحدٍ من العوام لمخالفته الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة، قيل لك: إن الشيخ فلان قال بذلك! ومهما تُبين له الأدلة والبراهين فلا سمع لك ولا طاعة.

فمن أنت ؟! إنهم رجال الدين .. ورجال الشريعة .. والمفتون في البلاد!.

إن هؤلاء العلماء شاطروا الحكام في دفع المسلمين إلى الانحراف والبعد عن عبودية الله الحقة، ففصلوا دين الله تعالى وقسموه بينهم شطرين: شطر للحكام وشطر للعلماء، فأصبحت أنظمة الحكم والسياسة بيد الحكام الظلمة المارقين، وأصبح الدين في يد علماء السوء، وكل يفسد في شطره حيث شاء وكيف شاء. والعوام المحكومون يتخبطون بين شطط الحكام وجبروتهم وبطشهم بمن خالفهم أو دعا إلى تحكيم شريعة الله تعالى في الأرض واتهامهم له بأنه منحرف متشدد.. متطرف!! وبين نفاق علماء السوء الذين يوالون الحكام ويساعدونهم في تحقيق مآربهم. والعامة بين هذا وذاك في شر مستطير وجهل كبير.

أترى بعد ذلك نصر وتمكين لوعد الله تعالى بالخلافة لأمةٍ هؤلاء هُم حكامها، وهؤلاء علماؤها، وهؤلاء هم أتباعها؟!

كلا وحاشا أن يفعل الله تعالى ما ينافى حكمته. فالله عز وجل يشترط تحقيق عبوديته الحقة من العباد أولا ، لتحقق لهم النصر والتمكين ، ليكونوا بذلك أهلا لحمل الرسالة ولإقامة شرع الله تعالى في الأرض بإقام الصلاة وإيتاء الزكان وغيرها من العبادات. قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور: ٥٥] . وقال : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ

أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج: ٤١].

إنه مما يؤسف أن نجد في واقعنا كثيرا من علماء الشريعة وحامليها بهذه الصورة، وأصبح لا وجود للعالم العامل في الواقع الخارجي إلا اليسير النادر.

فأولئك الذين ينبغي أن يكونوا أولى من غيرهم في تحقيق العبودية الحقة لله تعالى وقدوة لغيرهم، أصبحوا دعاة سوء، نسأل الله تعالى العافية والسلامة، وأن يجعلنا من العاملين وأن لايفتننا في ديننا قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾ [الأنفال : ٢٥].

بعض الأسباب الأخرى:

ومن أسباب انحراف المسلمين ، التي أثرت في تأخرهم وكانت سببا في انحرافهم وبعدهم عن عبوديتهم الحقة لخالقهم ما ذكره بعض الكتاب المسلمين، منهم الأمير شكيب أرسلان بقوله: «أعظم الأسباب :

[١] الجهل والعلم الناقص .

[٢] فساد الأخلاق بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، وهذا بصفة عامة فى المسلمين ـ إلا من رحم الله ـ ، وبصفة خاصة فساد أخلاق أمرائهم ومجاوزتهم الحد في البطش بمن عارضهم.

[٣] وعلماء السوء الذين يفتون بأهوائهم وجريا لأهواء أمرائهم ، فاتخذوا العلم مهنة للتعيش وجعلوا الدين مصيدة للدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع الموبقات، وأباحوا لهم خرق حدود الدين ، هذا والعامة مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء ويظنون ويعتقدون أن فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة والفساد بذلك يعظم ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتنمر.

[٤] الجبن والهلع [١] الذي أصابهم، والقنوط من رحمة الله والإعتقاد بأن الكفار على أي حال هم الأعلون ولاسبيل لمغالبتهم والتفوق عليهم بحال، يقول ﷺ: «**تُوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تَتَدَاعَى الأكلة إلى قصعتها**» فقال قائل: أَوَمن قلة نحن يومئذ ؟ قال: «**لا بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السَّيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن**». قال قائل: وما الوَهْن يا رسول الله؟ قال: «**حُبُّ الدنيا وكراهية الموت**» [٢]»[٣].

فضياع المسلمين ناتج عن تركهم دينهم، فإن هم رجعوا إليه عادت إليهم عزتهم ومهابتهم المنزوعة من قلوب أعدائهم.

يقول شكيب أرسلان في موضع آخر: «فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة أو كان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي، ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الإسلام عظيماً عزيزاً» [٤] اهـ.

وهو بُعْدٌ صريح من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله جل وعلا باختلاف دركاته وتباين كمياته.

وقد ذكر الأستاذ محمد قطب الأسباب التي أدت إلى انحراف المسلمين بقوله: «نستطيع أن نلخص الموقف في أربعة أسباب رئيسية ترد إليها بقية الأسباب الأخرى:

[١] فهناك أولاً التفلُّت البشري الطبعي من التكاليف كلما امتد الزمان،

---

(١) تعليق: هذا وإن كنت أرى أن الجبن والهلع الذي أصاب المسلمين ليس سببا في انحراف المسلمين كما ذكر ذلك الأمير شكيب، إنما هو أثر من الآثار الناجمة عن انحراف المسلمين، وذلك لحديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**» (السلسلة الصحيحة ح١١).

(٢) رواه أحمد: ٥ / ٢٧٨ . أبو داود: ك: الملاحم ـ ب: في تداعي الأمم على الإسلام.

(٣) من كتاب: لماذا تأخر المسلمون ـ شكيب أرسلان: ٥٧ .

(٤) المرجع السابق: ١٠٨ .

والعلاج الرباني لهذا التفلُّت هو التذكير، فنستطيع أن نقول إذًا إن التذكير لم يكن بالقدر اللازم الذي يمنع مجموع الأمة من التفلت، أو لم يكن من حيث الكيف والكفاءة المطلوبة لمنع الأمة من الانحراف عن الجادة.

[٢] وفى الوقت الذي كان التذكير أقل من المطلوب في الكم والكيف، وكان في حاجة إلى المزيد، جاء تياران مضادان لعملية التذكير يزيدان من درجة العجز فيها، أحدهما هو الفكر الإرجائي الذي يطمع العبد في رضا مولاه[١] بغير عمل حقيقي يقتضي الإيمان، إتكالاً على ما في القلب من وجدانيات ومشاعر.

[٣] والآخر هو الصوفية التي تطمع العبد في رضا مولاه عن طريق آخر غير أداء التكاليف الشرعية بالأوراد والأذكار والتبرك بالأولياء والمشايخ .

[٤] فإذا أضفنا إلى هذه العوامل الثلاثة الاستبداد السياسي الذي أدى إلى ضمور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في مجال السياسة خاصة وتحول الإسلام في حس الناس إلى ممارسة فردية بعد ضمور الممارسة الجماعية لهذا الدين.

نستطيع باختصار أن نقول: إن كثيرا من المفهومات الإسلامية قد فسدت وانحرفت في حس الأجيال المتأخرة، بدء بمفهوم لا إله إلا الله التي أصبحت مجرد كلمة تقال باللسان والقلب غافل عنها، والسلوك عنها بعيد ـ إلى مفهوم العبادة الذي انحصر في الشعائر التعبدية تُؤَدَّى أو لا تُؤدَّى ـ إلى مفهوم القضاء والقدر.

وأصبح الدين في النهاية صورة باهتة خاوية عن الروح لاتستطيع أن تصمد للهجوم الوحشي الذي تَدَافَعَ من كل صوب للقضاء على الإسلام»[٢].

---

(١) الطمع في رضا الله عز وجل مرغوب فيه ولكن من الخوف منه سبحانه ومن عذابه فالجمع بين الطمع والخوف أو الخوف والرجاء هو المنهج الصحيح الذي كان عليه الأنبياء والمسلمون المقتدون بهم، فقد أخبر الله تبارك وتعالى عن أنبيائه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] أما تغليب جانب على آخر فهو شطط عن الجادة وخروج عن نهج الأنبياء وهو ما وقع فيه المرجئة بتغليب جانب الرجاء والرغبة ، وما وقع فيه الخوارج بتغليب جانب الخوف والرهبة وكلاهما مخطىء .

(٢) واقعنا المعاصر : محمد قطب ١٦٢ ـ ١٦٣ (باختصار وتصرف) .

هذا وإن كنا نقول: إن صورة هذا الدين لم تك قط ولن تكون باهتة مطلقًا إنما هو تصور حامليه ومعتنقيه هو الذي بهت. أما دين الله عز وجل فإن صورته ناصعة نقية إلا أنها ليس لها وجود واقعي حقيقي في التطبيق من قبل معتنقيه - إلا من رحم ربك - كما أن هذا الدين يصمد أمام أي هجوم وحشي لأنه من عند الله العلي القدير، ولكنه لايعمل من ذاته ولا من فراغ بحيث إن أدير الزر تجاه التشغيل فإنه يعمل.. كلا .. ثم كلا إنه يعمل من خلال الطاقة البشرية التي تؤمن به وتعمل بما فيه وتتحرك به لتدفع الزر تجاه التشغيل فتعمل بكفاءة هذا الدين النابعة من ذاته، فحاملوا هذا الدين هم الذين عليهم عبء تحمله والعمل بما فيه، ولو كنا نتصور هذا الدين بالكيفية التي يعمل بها من ذاته، لما كان على النبي ﷺ وهو قائد هذا الدين وقدوته ، أن يدعو الكفار إليه ويصبر على أذاهم ويتحمل المشاق في سبيل تبليغه ، ولا عليه أيضا أن يجاهد في سبيل الله عز وجل ويتضرع بالدعاء إلى ربه لطلب النصر ولا احتاج الأمر في أن تشج رأسه وتكسر رباعيته، وكذلك الصحابة معه ومن بعده، لما دعاهم الأمر إلى ركوب الصعاب وتحمل المشاق ما دام هذا الدين يعمل من ذاته. إنها الطاقات البشرية التي تؤمن بهذا الدين وتعمل به[1] فكلما اقتربت منه بتحقيق عبوديتها لله عز وجل، فإنها بهذا الدين تصل إلى أعلى مراتب العبودية ويعزها الله تعالى على أعدائه ويمكن لهم في الأرض . أما إذا بعدت عن تحقيق عبوديتها لله عز وجل من خلال تفلتها من هذا الدين، أذلّها الله تعالى، وأذاقها لباس الجوع والخوف، وسلط الأعداء عليها؛ بما كسبت أيديها. قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)** ﴾ [النحل : ١١٢].

---

(١) لمزيد من الإيضاح راجع كتاب: (هذا الدين) سيد قطب، تحت عنوان (منهج للبشر) ص٣ - ١٤ .

المبحث الثاني
آثار الانحراف

إن الأسباب التي سردناها في المبحث السابق ـ وغيرها ـ قد أدت إلى انحراف المسلمين وأثَّرت بصورة مباشرة في عبوديتهم لله عز وجل، حتى جعلتهم لا يميزون بين الحق والباطل فجعلوا المعروف منكرا والمنكر معروفا.

هذه الأسباب التي أدت إلى انحراف المسلمين لها آثار نتجت عنها وانبثقت منها أثرت في الدين نفسه بعد أن أثرت في حامليه.

أولاً - تأثير الانحراف في معالم الدين:

أثرت تلك الانحرافات في كثير من مفهومات الدين منها:

١ ـ مفهوم العقيدة :

وهي كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله» وعليها أس الدين، ويقتضي الإيمان بها وبما يندرج تحتها، كما يقتضي الإذعان لها، والجهاد في سبيلها، والدعوة والتحاكم إليها، وموالاة معتنقيها والتبرؤ من جاحديها ومحاربيها.. إلى غير ذلك مما فهمه سلف الأمة الصالح من مدلول (لا إله إلا الله) الشامل من الخضوع التام والعبودية الحقة لله عز وجل والتحرر من العبودية لكل من سواه سبحانه.

أما المفهوم الذي انحرفت إليه العقيدة، هو ما شاع بين كثير من المسلمين بأن التلفظ بها وحده فيه النجاة من النار، وأصبح ترددها على الألسنة مشوبا وخاليًا من إيمان القلوب بمفهومها الحقيقي، زيادة على ما انتابها من مفهوم خاطىء من التوسل بالأولياء وطلب الحوائج منهم وبهم، والموالد، وكرامات الأولياء والتمائم والتعويذات إلى غير ذلك من المخالفات الشرعية التي تجعل المسلم العابد لله حقًا يفر منها، والتي حدثت على يد مشايخ الطرق الصوفية، والتي أغوت كثيراً من

العامة والخاصة ، باعتبارها هي الدين، فانتشرت بينهم البدع الباطلة، والمعتقدات الفاسدة والخرافات والتُّراهات التي جاوز بها أصحاب الطرق الصوفية وغيرهم حدود العقيدة الصحيحة وذلك بتقديسهم الأولياء واتخاذهم أربابا من دون الله تعالى.

فأكثر الناس ـ إلا من رحم ربك ـ يعتقدون تلك الشركيات ويحكمون بها ويتحاكمون بغير ما أنزل الله تعالى، وهم مع هذا يعتقدون في قرارة نفوسهم أنهم ماداموا يرددون (لا إله إلا الله) فهم مسلمون كاملوا الإيمان، حيث يكفيهم معرفة الله تعالى لدخول الجنان والبعد عن النيران، متبعين بذلك سبل الضالين من المرجئة وغيرهم الذين جعلوا الإيمان بالله تعالى هو التصديق بالقلب فقط دون عمل الجوارح وقالوا بأنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة[١].

وقد انتشر ـ مما يؤسف ـ هذا الفهم الخاطئ لكلمة التوحيد بين العامة من المسلمين مستنداً إلى فعل علماء السوء وفُتيَاهُم، أما التوحيد المستلزم للعبودية الحقة التي على الأمة الإسلامية معرفتها والعمل بها فهو ما عبر عنه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله : « وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا إله إلا الله ، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عُبَّاد الأصنام مُقرِّين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن ـ من محبة الله تعالى، والخضوع له، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه العلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض: ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها »[٢] اهـ.

٢ ـ مفهوم العبادة :

يرتبط مفهوم العبادة بمفهوم العقيدة السابق حيث إن عقيدة التوحيد قائمة على إفراد الله تعالى بالعبادة، فمفهوم العبادة شامل وعام . يجمع كل مفردات

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري : ١٩٧ ـ ٢٠٧، والفرق بين الفرق ـ البغدادي: ٢٠٢ ـ ٢٠٧ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم : ١ / ٣٣٠ .

الدين كلها. أما في القرون الأخيرة الحالكة السواد فقد انحصر مفهوم العبادة على الشعائر التعبدية فقط من الصلاة والزكاة والصوم والحج دون غيرها من جملة العبادات، وقد كان لانفصال الدين عن السياسة والحكم أثر كبير في استقرار هذا الفهم الخاطئ للعبادة عند عامة المسلمين واستبداله بالمفهوم الحقيقي الذي كان راسخا في قلوب وأذهان وجوارح الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ والتابعين؛ فكان يشمل حياتهم من أولها إلى آخرها من الإيمان بالله تعالى وحده لاشريك له واتباع أوامره وأوامر رسوله، وكان يشمل صلاتهم وزكاتهم وحجهم وجهادهم لله تعالى، كما كان يشمل معاملاتهم، ودعوتهم وتحاكمهم إلى شريعة الله تعالى المنزلة من عنده و... و... إلخ، فكان لفظ (العبادة) شاملا لكل حياتهم، وهو المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]. أما في زماننا فقد انحصر هذا المفهوم انحصاراً ضيقًا جعل من المسلمين من يظن أن بإتيانه الصلوات الخمس فقط ـ دون إتيانها في وقتها ولا مع الجماعة في المسجد ـ على أي شكل كان فقد حِيزَ له الدين بحذافيره، ويظن الجهال من المسلمين بالذي يؤدي الصلوات الخمس على النحو السابق أنه قد صار متدينا مستشيخا ـ على حد تعبيرهم ـ.

٣ ـ مفهوم الحكم:

إن من أعظم آثار انحراف المسلمين هو ترك التحاكم إلى شريعة الله جلا وعلا. وأولا وقبل كل شيء ينبغي علينا أن نعلم أن الحكم حكمان لا ثالث لهما.

الأول: حكم الله تعالى. **والثاني**: حكم الجاهلية.

وهذا بنص كتاب الله تعالى لم ولن يتبدل، حيث قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة: ٥٠].

وبناء عليه فإن على المسلمين التحاكم إلى ما أنزل الله عز وجل، وموالاة

الحكومة التي تحكم بما أنزل الله تعالى، كما عليهم التبرؤ من أحكام الجاهلية، والتبرؤ من الحكومة التي تحكم بحكم الجاهلية. وهذا من أعظم أصول التوحيد ودعائمه .

فحكم الله عز وجل الذي أنزله على خاتم رسله ﷺ هو المنهج الشامل لحياة الأمم في إصلاح أمور دنياهم وإسعادهم في أخراهم . وقد أمر الله عز وجل رسوله باتباع حكم الله عز وجل وألا يحيد عنه. فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) ﴾ [الجاثية : ١٨] . وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة : ٤٨].

وهذا الأمر باتباع حكم الله تعالى في شئون الدين والدنيا وأحكام الدولة، والاقتصاد والسياسة والاجتماع والأخلاق والمعاهدات والقصاص والحدود والتعزيرات والوصايا والهبات والمواريث والزواج والطلاق والحضانة والنفقات، والتجارة والصناعة و... الخ... عام للمسلمين جميعًا ولأئمتهم خاصة، إذ هم القائمون على تنفيذ الأحكام في الدولة، وحفظ الحقوق واستتباب الأمن فيها والأخذ على يد الظالمين والمفسدين، قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الأعراف:٣]. فكل حكم لم ينزله الله عز وجل ويخالف ما أنزله الله تعالى فهو حكم جاهلي يجب الكفر به وعدم التحاكم إليه، فقد نفى الله عز وجل الإيمان عمن لا يرضى بحكم الله تعالى ويسلِّم له، فقال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: ٦٥].

وقد أخبر الله عز وجل عن كفر من لم يحكم بما أنزله سبحانه، فقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾ [المائدة: ٤٤].

فهذا هو شرك التشريع الذي وقع فيه كثير من المسلمين حكامًا ومحكومين ـ إلا من رحم ربك ـ فقد كان المسلمون من قبل يأخذون بعضا من الأنظمة التي لدى الأمم كالفرس والروم لما يرون فيها من مصلحة للمسلمين عامة، كما كان بعضها يفيد المسلمين الداخلين في الإسلام من تلك البقع، وهي في مجملها لاتخالف نصًا ثابتًا وصريحًا في الكتاب أو السُّنة. إنما تحقق الصلاح العام للدولة، فهذا لا بأس به[١] ولكن حدث في القرون المتأخرة أن نحيت جانبا شريعة الله تعالى بالكلية وحل محلها القوانين الجاهلية، وحكم بها أغلبية البلدان التي يقطنها مسلمون بصورة يندى لها الجبين حتى لم يبق من أحكام الله عز وجل سوى ما يتعلق بالزواج والطلاق وهو ما يحكم به رسما وشكلا، أما مضمونا فهو اتباع لسنن النصارى بتحريم التعدد كما ينظر للطلاق على أنه جريمة لابد أن تتم أمام القضاء ولو كانت هناك أسباب توجبه[٢] وكذا الأحكام الخاصة بالمواريث.

فوقع المسلمون ـ إلا من رحم ربك ـ في شرك التشريع ـ الذي هو من أهم مقتضيات ألوهية الله عز وجل وعبودية العباد لخالقهم ـ سواء أكانوا حكاما قد نَحّوا هم بأيديهم شريعة الله تعالى أم كانوا محكومين ممن فسدت فطرتهم وتلاشت غيرتهم ورضوا بالأحكام الوضعية التي تحكم بالسجن فقط على مقترفي الزنا والقتل والسرقة وشرب الخمر، فلا تجد لهؤلاء تعزيراً في تلك الجرائم ما دام قد تم برضا أطراف الجريمة !! وتجاوز بعض المارقين الحد تزلفًا لتلك الحكومات التي

---

(١) نستطيع أن نقيسه في حاضرنا على قوانين المرور ـ مثلا ـ فهي بلاشك تخدم وتساعد على السلامة والتقليل من الحوادث التي تذهب بالأرواح ، كما أنها تيسر حركة السير على كثرة السيارات وأنواعها بانتظام . فهي لاتخالف بأي وجه من الوجوه شريعة الله عز وجل ولا تناقضها، بل على العكس فإنها توافق التعليمات العامة للشريعة في حفظ النفوس والممتلكات ، وتوافق كثيرا من القواعد الفقهية كالمصالح المرسلة وكقاعدة لا ضرر ولا ضرار.. وغيرها. وأمَّا ما يتعلق بحكم الكفر على الحاكم المسلم الذي يحكم بغير ما أنزل الله تعالى فهو كفر دون كفر، وهو ما جاء في تفسير سورة المائدة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وأما الحكم بالكفر الخالص فهو على من فضَّل صراحة حكم الجاهلية على حكم الله تعالى، واعتبره هو الأصلح دونه، والله تعالى أعلى وأعلم.

(٢) يراجع ما ذكرناه في الفصل الرابع في مبحث (العبادات عند النصارى) ٤٢٦ .

لا تحكم بما أنزل الله وقال: إن التعزيرات الخاصة للقاتل، والسارق، والزاني في الحكم الإسلامي وحشية وهمجية، ويجب اعتبار المجرمين على أنهم مرضى يجب معاملتهم ومعالجتهم وتكون هناك دراسة نفسية لظروف المجرم ولا نفكر في عقابه(١).

ومما يؤسف أيضا أن نجد الكثير من الدعاة يعظون الناس ويذكرونهم بتوحيد الألوهية ويحذرونهم من الشرك والسجود والنذر والطواف لغير الله تعالى، ولا يذكرون شيئا عن شرك التشريع الذي هو من أهم مقتضيات توحيد الألوهية؛ إذْ لا معبود ولا حاكم بحق إلا الله تعالى فلا يذكرون شيئا عن من يحكم بغير ما أنزل الله أو بمن رضي بهذا الحكم.

فانفصل مجال الحكم والسياسة والتنظيم والإدارة عن نطاق الدين وتعاليمه حتى غاب عن وعي عامة المسلمين تحكيم شريعة الله تعالى.

٤ ـ مفهوم القضاء والقدر:

انتشر مفهوم الجبر بين كثير من المسلمين فيما يتعلق بشرع الله فقط دون معاشهم التي يسعون إليها، وذلك بانتشار الفكر الإرجائي والفكر الصوفي، إضافة إلى التفلُّت البشري؛ فأوجد أناسا يطمعون في رضا الله تعالى دون تقديم أعمال صالحة لذلك وأحسنوا الظن في دخول الجنان والبعد عن النيران مما أبعدهم عن العبودية الحقة لله عز وجل مخالفين بذلك أمر ربهم وأمر رسولهم في الحث على العمل والرضا بقضاء الله عز وجل بعد ذلك حيث كلٌّ ميسر لما خلق له.

قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون: ٥١]. فهذا أمر من الله عز وجل لأفضل خلقه وهم أنبياؤه، فكيف بمن دونهم؟!.

---

(١) كتاب: (الإيمان أركانه، وحقيقته، نواقضه) تأليف محمد نعيم ياسين: ٢٧٦.

٥ ـ مفهوم الجهاد :

لقد كان مفهوم الجهاد واضحًا جليًّا في محاربة الكفار، بدعوتهم أولاً، ثم يتم تخييرهم بين دفع الجزية أو الحرب، فإن أبوا إلا الحرب فعلى المسلمين قتالهم والدفاع عن دينهم. هذا المفهوم كان موجوداً حتى في وسط فساد بعض الحكام من بني أمية والعباسيين وفى الدولة العثمانية، فكانت روح الجهاد التي تميز بها هذا الدين عالية قوية يخاف منها أعداء الإسلام الذين يقاتلون للحياة وللذات الدنيا، أما المسلمون فيقاتلون لنيل الشهادة، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم ربهم في الأرض وإقامته والقيام به ليتم بذلك عبودية الله الحقة.

إلا أنه قد تغير هذا المفهوم كغيره من مفهومات الدين ، وأصبح دفاعا عن الأرض واللغة والقومية وليس له علاقة بدين الله عز وجل. واقتصرت كل دويلة على نفسها بما قسم لها حدود الأرض التي تتبعها ولا تتعداه من قبل أعداء الإسلام من المستعمرين، وحين تشترك دولتان فى قطعة من الأرض تنطحان فيما بينهما وتتقاتلان قتال المستميت، كل منهما يحاول نزع تلك القطعة إليه، هذا مع اتفاقهما في الانتماء إلى الدين الإسلامي شكلاً، فأصبح مفهوم الجهاد عند المسلمين ـ إلا من رحم ربك ـ هو الدفاع عن القومية والأرض والوطن وكلهادعاوي جاهلية ليست من الدين في شيء، قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح: ٢٦] . فكل جهاد يقوم على غير أساس الدفاع عن دين الله تعالى ورفع كلمته وإعلاء شأنه فهو جهاد جاهلي .

ثانيًا - تأثير الانحراف في حاملي الدين:

إن تأثير الانحراف على حاملي الدين له مظاهر متعددة وكثيرة يشهدها المسلمون ويدركونها بأنفسهم لأنها عقاب لهم بما كسبت أيديهم ببعدهم عن عبودية الله تعالى الحقة وبتركهم دينهم الحنيف .

لاشك أن الله عز وجل صادق الوعد فيما وعد به عباده المؤمنين بالنصر والتمكين في مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)** ﴾ [الروم: ٤٧]، وقوله : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ(٥١)** ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨)** ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله : ﴿ **وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)** ﴾ [النساء : ١٤١].

ولكن هذا الوعد بالنصر والعزة والتمكين .. لمن ؟!

فهو بلا شك كما أخبر سبحانه لعباده المؤمنين، وقد كان لهم ذلك حين كانوا مؤمنين، فلما فقدوا عبوديتهم لله تعالى وإيمانهم به جل وعلا، استحقوا نزع العزة والنصر عنهم واستبدلوا بالعزة والتمكين الذل والهوان عقابا لهم.

إن سنن الله عز وجل التي وضعها لا تتغير ولا تتبدل في شأن ـ عباده الكافرين منهم والمؤمنين ـ إذ هم بعدوا عن شريعته ولم يحققوا عبوديتهم له سبحانه وتعالى، وعَصَوهُ وخرجوا عن نهجه.

فأما مع الكافرين فإنهم حين يعصون الله تعالى ويزيدون في طغيانهم وكفرهم يزيدهم الله تعالى بسطة ويمنحهم الكثير من متاع الدنيا وملذاتها ثم يأخذهم بغتة أخذ عزيز مقتدر فيكون ذلك أوقع في نفوسهم وأشد حسرة في قلوبهم. قال عز من قائل: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا**

فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]، ويقول ﷺ: «**إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته**» (١).

وأما مع عباده المؤمنين فإنهم حين يخرجون عن نهج ربهم، ويعتدون على مقام عبوديتهم له سبحانه فإن الله تعالى يصيبهم بالذل والهوان ويبتليهم، فيكون ذلك عقابًا لهم على تفريطهم وحثًّا لهم على اليقظة من غفلتهم ورقدتهم، عسى أن يتوبوا ويرجعوا ويندموا على ما صنعوا فيبدلهم الله تعالى خيراً.

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم: ٤١].

فكيف يكون الوعد بالنصر والعزة والتمكين للمسلمين، وقد أصيبوا بتركهم دين الله تعالى بالذل والهوان؟!

أيكون أجر بلا عمل؟ أم تكون مكافأة بلا استحقاق؟ أم يكون فوز بلا سعي ولا كسب؟ فهذا مخالف ولاشك الحكمة الإلهية، حيث يقول تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) ﴾ [الرحمن: ٦٠]. ويقول تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦]، كما لا يكون جزاء الكفر والعصيان إلا الذل والهوان، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧].

---

(١) مسلم: ك، الظلم - ب: في الإملاء للظالم. (ومختصره: ح١٨٣١).

ولقد ترتب على بُعْدِ الكثيرين من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله عز وجل آثار سيّئة على المسلمين عامة كانت ـ ومازالت ـ عقابا من الله تعالى لهم إلى أن يرجعوا إلى دينهم . منها :

١ ـ الذل والهوان :

وهذا أمر حتمي لما بينه ﷺ في الحديث الجامع الشامل عن ابن عمر رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «**إذا تَبَايعتم بالعينة** (١) **وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سَلَّطَ اللهُ عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**» (٢) .

فيبين الحديث بجوامع الكلم التي فيه ، المرض وأعراضه وآثاره وطريق علاجه .

أما أعراض المرض فهي : التبايع بالعينة وأخذ أذناب البقر ، والرضا بالزرع وترك الجهاد في سبيل الله تعالى ، وهو محمول على الانشغال بمتاع الدنيا والتكالب عليها فيترتب على ذلك ترك أداء الواجبات كالجهاد وغيره . ولا يقصد من الحديث ذم الزراعة والحرث بل هي محمودة مُثَاب عليها ، يقول الشيخ ناصر الدين الألباني : « فإن من المعلوم أن الغلو في السعي وراء الكسب يلهي صاحبه عن الواجب ويحمله على التكالب على الدنيا والإخلاد إلى الأرض والإعراض عن الجهاد ، كما هو مشاهد من الكثيرين من الأغنياء » (٣) اهـ .

وأما آثار المرض فهو : الذل الذي يسلطه الله عز وجل على هؤلاء المرضى من المسلمين فلا ينزعه من قلوبهم إلا بشرط الدواء الموصوف لهؤلاء المرضى وغيرهم وهو الرجوع إلى دين الله عز وجل وتحقيق عبوديتهم لله عز وجل الحقة .

ومن العجب أن نجد – من مظاهر هذا الذل ومصداقًا لقول النبي ﷺ –

---

(١) العينة : أن يبيع شيئا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري ، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر يدفعه نقدا . وهو تحايل على الربا . (السلسلة الصحيحة : ١ / ١٥) .

(٢) السلسلة الصحيحة : ح رقم ١١ .

(٣) السلسلة الصحيحة : ١ / ١٥ .

المسلمين على تعدادهم البالغ أكثر من مليار مسلم[١] على وجه المعمورة، تستذلهم شرذمة ذليلة مغضوب عليها من قبل بارئها لا يتعدى تعدادهم خمسة ملايين نسمة يأخذون القدس الشريف وينتهكون حرمته ويتعدون على قبلة المسلمين الأولى لأكثر من أربعين عاما ـ ومازالوا ـ وما استطاع المسلمون على كثرة تعدادهم أن يستردوا القدس الشريف من هؤلاء الكفرة الفجرة من اليهود هذا بالإضافة إلى التخلف والتقهقر الذي أصاب المسلمين في كافة المجالات الحضارية ، وتقدم أعدائهم فيها . إنه الذل والهوان الذي أصيب به المسلمون ببعدهم عن عبودية الله تعالى الحقة وبمخالفتهم أمر ربهم جل وعلا وأمر رسولهم عليه الصلاة والسلام القائل فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما : «**بُعِثْتُ بالسَّيف بين يدي الساعة، حتى يُعبد الله وحده لا شريكَ له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذُّلّ والصغار على من خالف أمري ومن تشبَّه بقوم فهو منهم**»[٢] .

وهو ما وقع بالفعل من مخالفة كثير من المسلمين أمر نبيهم وشرعه واتباع سنن الكفار من اليهود والنصارى والتشبه بهم .

٢ ـ تسلط الأعداء عليهم :

إن الغفلة التي انتابت الأمة الإسلامية والذل الذي لحق بها من جراء بعدهم عن العبودية الحقة لخالقهم أعطت الفرصة لأعدائهم للإغارة عليهم لسلب ملكهم ونزع سلطانهم، ولطالما ظل الكافرون يحقدون على هذا الدين وعلى أهله ويتمنون ذلك اليوم الذي يُقضَى عليه نهائيًا ويسعون في تحقيق ذلك سعيًا ويبذلون له كل غال ورخيص، ولكن يأبى الله تعالى إلاَّ أن يتم نوره ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ

---

(١) تعليق : هؤلاء جميعا هم الغثاء الذي أخبر عنه النبي ﷺ ومن بينهم فئة قليلة مخلصة إلى ربها، تسعى لتحقيق عبوديتها في الأرض، وهي مستضعفة، لم تتمكن بعد من مهاجمة وقتال اليهود حقا وهم على استعداد لذلك بما أوتوا من نور الهداية وثبات اليقين. ولكنهم مستضعفون وتحت ضغط الحكومات اللادينية التي تعمل على تثبيت هؤلاء الشرذمة من اليهود، فاللهَ نسأل أن ينصر دينه وكتابه وسُنَّة نبيه وعباده المستضعفين.

(٢) رواه أحمد : ٢ / ٥٠، صحيح الجامع : ٢٨٢٨ .

بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف : ٨ - ٩].

فقد استغل الصليبيون فرصة غفلة من المسلمين فقاموا بشن الحروب الصليبية على العالم الإسلامي للقضاء على الإسلام وأهله، وبحملات استمرت قرونا من الزمان تصدَّى لها مؤخراً من قيضه الله تعالى لحفظ دينه والدفاع عنه ، وهو عماد الدين أتباك زنكي [١]، ومن بعده ولده نور الدين محمود زنكي [٢] ثم جاء القائد البطل صلاح الدين الأيوبي [٣]، فحقق أكثر الإنتصارات للمسلمين وقضى على الصليبيين في موقعة «حطِّين» وأعاد الله تعالى به للمسلمين مجدهم وعزهم.

ولكن رجع الكثيرون ثانية إلى المجون واللهو والترف والإنحلال الخلقي، والبعد عن العبودية الحقة الله تعالى، فزحفت عليهم جيوش التتار وهجمت هجومًا ساحقًا لإبادة المسلمين، فتحقق لهم الاستيلاء على أهم جزء من بلاد المسلمين وهو الشام والعراق وسقطت الخلافة العباسية وآل الأمر لهؤلاء التتار الذين كانوا لادين لهم ولا أمانة، ثم جاء القائد الرباني سيف الدين قطز [٤] فقضى عليهم وأبادهم وقتلهم شر قِتلة في موقعة عين جالوت بالشام ، ثم جاء العثمانيون بقوتهم الحربية وأخذوا زمام خلافة المسلمين فقاموا عليها قرونا وأثبتوا كفاءتهم في الحفاظ على الدين الإسلامي ، وكانت البلاد الكافرة كلها تهاب الدولة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية التي استمر ملكها وخلافتها أكثر

---

(١) زنكي عماد الدين بن قسيم الدولة الحاجب، عرف بالملك الشهيد، كان تركيا قاد ميمنة الجيش ضد الإفرنج وأجلاهم عن حلب وحماة، ولد سنة ٤٧٨هـ ، وتوفي سنة ٥٤١هـ . (الأعلام - الزركلي: مجلد ٣ / ٥٠ - ط٥).

(٢) محمود بن زنكي ، نور الدين ، توفي سنة ٥٦٩هـ ، الأعلام - الزركلي : مجلد ٣ - ص ٥٠ : ط٥ .

(٣) يوسف بن أيوب - توفي سنة ٥٨٩هـ ، الأعلام - الزركلي : مجلد ٢ - ص ٣٩، ط٥ .

(٤) قطز بن عبد الله المعزي، سيف الدين ، ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام نهض لقتال التتار بعد أن خربوا بغداد، فخرج سيف الدين قطز من مصر لقتالهم ، ولقيهم وظفر بهم في موقعة عين جالوت بفلسطين، توفي سنة ٦٥٨هـ (الأعلام - الزركلي / مجلد ٥ - ص٢٠١ : ط٥).

من خمسة قرون متتالية ، إلى أن جاء الغزو الصليبي الأخير فقضى على قوة الإسلام والمسلمين ، فغزت أوروبا الصليبية الحاقدة أقطار المسلمين حين ضعفت الأمة الإسلامية وتفككت وبعد كثير من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لخالقهم جل وعلا، فغزا الإنكليز كلا من الهند ومصر والعراق وشرق الأردن وفرضت الوصاية على فلسطين تحت إشرافها تمهيداً لإقامة دولة إسرائيل، كما احتلت فرنسا سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ، كما غزت إيطاليا ليبيا، إلى غير ذلك من الحملات الصليبية الحاقدة التي غزت معظم أقطار العالم الإسلامي لتفتيت الأمة الإسلامية بأسرها جملة واحدة في وقت واحد . فاستطاع حلفاء الصليبية من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا القضاء على الخلافة العثمانية والقضاء على الإسلام.

وإليك النشيد الحماسي الذي كان يردده الجنود الإيطاليون حين خروجهم لقتال المسلمين في طرابلس والذي يدل على مدى الحقد الدفين لدى هؤلاء الصليبيين تجاه الإسلام وأهله . وهذا نصه : « إن من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره أن لا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس، والراية المثلثة الألوان [١] والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقامة .. يا أماه .. أتمنى صلاتك ولا تبكي، بل اضحكي وتأملي ألا تعلمين إن إيطالية تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمي في سبيلي لسحق الأمة الملعونة ولأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز الأبكار للسلطان، سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن » [٢].

وقضى بذلك أعداء الإسلام جهوداً كبيرة لمنع عودة الإسلام إلى قوته ثانية، وحرصوا كل الحرص أن يظل المسلمون في صراع فيما بينهم ، وضعف وافتقار إلى أعدائهم وتخلُّف عن أي تقدم حضاري، كما يقف أعداء الإسلام بالمرصاد لأي محاولة تدعو إلى إصلاح المسلمين وإعادة الدين إليهم، وتقضي عليها من بدء

---

(١) وهو العلم الذي اتخذه معظم الدول الأروبية شعارا لها والذي يمثل (الحرية والإخاء والمساواة) وهو شعار ماسوني معروف. (راجع : أزمة العصر ـ محمد محمد حسين : ١٩٥).

(٢) نقلا عن : (لماذا تاخر المسلمون) شكيب أرسلان : ٣١ ـ ٣٢، من الهامش .

بزوغها مستخدمين بذلك شتى الحيل والوسائل الملتوية[١] عن طريق مباشرة أو عن طريق عملائهم من أبناء المسلمين الذين باعوا دينهم . فقد نقل الأستاذ محمد قطب عن أنديرا غاندي قولة تفصح عن نواياهم الخبيثة في تقديرها لأحد رؤساء الدول العربية لقيامه بسحق وتقتيل الأخوان المسلمين المتعصبين[٢] .

كما نقل الأستاذ ـ حفظه الله تعالى ـ عن إحدى الصحف البريطانية استياءها من مخالفة هذا الحاكم السابق الذكر لتصرف ما ، ولكنها في الوقت نفسه تمجده وتثني عليه لما قام به من سحق الإخوان المتعصبين[٣] !

إنها الحقيقة التي أخبر الله تعالى عنها منذ أربعة عشر قرنا بقوله : ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)** ﴾ [البقرة : ١٢٠] . وبقوله : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)** ﴾ [المائدة : ٨٢]. وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن سطو تلك الأمم الكافرة على الأمة الإسلامية حين غفلتها وبعدها عن عبوديتها لله جل وعلا وانغماسها في ملذات الدنيا وشهواتها بقوله : «**يوشك أن**

---

(١) إن ما يجري في أيامنا من أحداث خير شاهد على ما نقول به منها : حادثة اغتيال الرئيس الباكستاني ضياء الحق حين ظهر منه ـ رحمه الله تعالى ـ رغبة أكيدة في تطبيق الشريعة الإسلامية، ومساعدته الظاهرة للمجاهدين الأفغان وتمويلهم بالسلاح لإقامة دولتهم المسلمة، وكذلك تحالف روسيا وأمريكا ومساندتهم النظام الأفغاني الشيوعي ضد المجاهدين الأفغان حتى لا تقوم لدولة المجاهدين المسلمة قائمة، وكذلك ماجرى مؤخرا من اغتيال رئيس جزر القمر لعزمه الأكيد على تطبيق الشريعة الإسلامية، أضف إلى ذلك مايجري بالسودان من المحاولات المتتالية لتطبيق الشريعة الإسلامية، والقضاء عليها من قبل أعداء الإسلام أولا بأول فهل للمسلمين أن ينتبهوا لما يجري على يد أعدائهم للقضاء عليهم وعلى دينهم ؟!!

(٢) واقعنا المعاصر ـ محمد قطب : ٤٣١ .

(٣) المصدر نفسه .

تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها». قال قائل: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: «**لا .. بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**» قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**» (١).

٣ ـ إصابتهم بالجوع والخوف :

إن من أهم الدعائم الأساسية لأي مجتمع الأمن الغذائي، واستتباب الأمن النفسي، وتكون هاتان الدعامتان موجودتين وظاهرتين في المجتمع الإسلامي بتمسك أفراده، وتحقيقهم لعبوديتهم لخالقهم جل وعلا. يقول الله عز وجل: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ربَ هذا الْبَيْتِ (٣) الَّذي أَطْعَمَهُم مِن جوعٍ وآمَنَهُم مِّنْ خوفٍ (٤) ﴾

[قريش: ٣ ـ ٤].

أما إذا بَعُدَ أفراد المجتمع الإسلامي عن عبوديتهم الحقة لله تعالى فإنه يبدلهم جل وعلا بسعة رزقهم جوعا، كما يبدلهم بالأمن خوفًا ، فيعيشون في رعب مستمر، وهو ما يحدث بالفعل في كثير من المجتمعات الإسلامية، وقد كان من الأولى لها أن تعي ما حدث للأمم السابقة فتعتبر، فقد ضرب الله لنا منها أمثلة. كقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾

[النحل : ١١٢].

وإخباره جل وعلا عن قوم سبأ في قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) ﴾

[سبأ: ١٥ ـ ١٧].

---

(١) السلسلة الصحيحة : ٩٥٨ .

إن الجوع والخوف اللذين انتشرا في كثير من البلاد الإسلامية ليفزع منه الكثيرون حيث انتشرت المجاعات وارتفعت نسبة الوفيات واضمحلت الرعاية الصحية وعم الجفاف في كثير من أراضي تلك البلاد، فاستغلت هذه الحالةجمعيات التنصير هناك في إطعام المسلمين هناك مقابل تركهم إسلامهم واعتناقهم النصرانية، فيقبلون تحت ضغط الفاقة وشدة الحاجة وإلا فالموت أمام أعينهم يشاهدونه يوميا بالمئات(١).

٤ ـ ضياع الخشوع وعلماء الأمة العاملين :

إنَّ بُعد المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله تعالى وانسلاخهم من دينهم لينزع من قلوب الكثيرين خشية الله جل وعلا كما ينزع من الأمة أغلى أعمدتها وهم العلماء العاملون حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناسُ رؤوساً هم قمة الجهل، ولكنهم في نظر العوام علماء فأفتوهم بما يوافق أمزجتهم فضلوا وأضلوا ، وهو تصديق لما أخبر به المصطفى عليه الصلاة والسلام عن مآل هذه الأمة بتركها دينها؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال ﷺ : «**أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً**» (٢).

وأما عن ضياع العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وحملة الدين وحاميه ومنارات الهدى لعامة المسلمين ، فقد أسهم فقدانهم ـ أو بمعنى أدق قلتهم ـ في ضياع المسلمين وإضلالهم عن دينهم . فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبقَ عالما اتخذ الناس رؤساء جُهَّالاً فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**» (٣).

---

(١) مما تجدر الإشادة به ما تقوم به هيئة الإغاثة العالمية التابعة لرابطة العالم الإسلامي من جمع التبرعات والإسراع في إعانة ونجدة إخوانهم المسلمين في البلدان الإسلامية التي أصابها الجفاف والمجاعات، نسأل الله تعالى لهم العون والسداد فيما يبذلونه.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب ـ للمنذري ـ تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني : ك : الصلاة ـ ب : الترهيب من عدم إتمام الركوع والسجود : ح٥٤٣ .

(٣) بخاري : ك : العلم ـ ب : كيف يقبض العلم .

٥ ـ عدم استجابة الدعاء :

وهذا من أعظم آثار انحراف كثير من المسلمين ظهوراً ووضوحًا . حيث يدعوا المصلون منهم ربهم في اليوم والليلة سبع عشرة مرة بقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ بصيغة الجمع ﴿ اهْدِنَا ﴾ ولكن ما نراه من حال المسلمين الذي يزداد سوء لا يُحقِّق استجابة للدعاء .

فهل من غفلتهم ؟ أو من بعدهم عن العبودية الحقة لخالقهم ؟ أو من عقاب الله تعالى لهم؟ كل هذا حق وواقع ويمكن أن يقال . ولكنَّا لا نشكُّ بحال في وعد الله عز وجل في قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ [غافر: ٦٠].

فهلا راجعنا أنفسنا لنعلم أسباب تأخير الاستجابة من الله عز وجل! والتي منها انشغال الكثيرين من المسلمين بملذاتهم وشهواتهم ولهوهم عن ذكر الله تعالى، وهذه من عوامل تأخر الاستجابة في الدعاء بل عدمها بالكلية لقوله ﷺ : **«واعلموا أن الله لايستجيب دعاءاً من قلبٍ غافلٍ لاه»** (١).

إضافة إلى عدم مبالاة الكثيرين في التحري من طيب الرزق، وفى هذا يقول ﷺ : **«أيها الناس إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك»** (٢).

٦ ـ جملة من الآثار في انحراف المسلمين:

هذه جملة من الآثار التي ترتبت على انحراف المسلمين حكاما ومحكومين لبعدهم عن العبودية الحقة لله جل وعلا أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ من

---

(١) الترمذي : ك، الدعوات ـ ب ـ ٦٦، (وصحيحه : ح٢٧٦٦).

(٢) مسلم : ك : الزكاة ـ ب : قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها. (ومختصره/ ح رقم ٥٤٠).

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حيث يقول : «**يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركونهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فَشَا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم ، إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يُمطروا**[١]**، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[٢].

فهذا حديث جامع ينبغي على المسلمين دراسته دراسة وافية يتم بها صلاحهم وإصلاحهم، فيتعرفون فيها على ما هو واقع بالفعل ومشاهد في حياتهم اليومية بما يغني عن البيان، فيفيق الغافل من غفلته ويستيقظ النائم من رقدته. هذا بالإضافة إلى العديد من الآثار الناجمة عن بعد كثير من المسلمين عن عبوديتهم الحقة لله جل وعلا والتي نسأل الله تعالى أن يردهم إليها ردًّا جميلا. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد : ١١].

---

(١) لقيام البهائم بعبوديتهم تجاه خالقهم جل وعلا من التسبيح والسجود وغيرها مما قد بيناه بالأدلة الثابتة في الفصل الثاني من الكتاب.

(٢) ابن ماجه : ك، الفتن ـ ب : العقوبات (وصحيحه ح ٣٢٤٦).

المبحث الثالث
طريق النجاة

رأينا في المبحثين السابقين أسباب انحراف كثير من المسلمين عن العبودية الحقة لخالقهم جل وعلا، والآثار التي ترتبت على بعدهم عنها، من خلال الواقع الذي يعيشه المسلمون.

وها نحن في هذا المبحث نحاول جادين في الوصول إلى حلول تمكن المسلمين من الوصول إلى طريق النجاة وتأخذ بيد كثير من المسلمين ممن أصابهم مرض البعد عن الله جل وعلا، إلى بر أمان العبودية الحقة لله تعالى.

ولعلي أسجل هنا سطوراً يمليها علي قلبي ويحتمها عليَّ ديني، ليست من نظرة الباحث فحسب ولكنها ابتداء نظرة المسلم الغيور على دينه ويريد الخلاص من الذل والهوان اللذين أصابا المسلمين ، ويأمل العزة والنصر والتمكين التي وعد الله تعالى عباده المؤمنين إن هم رجعوا إليه سبحانه بتحقيق عبوديتهم الحقة له جل وعلا. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون :٨]، وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر : ٥١].

فهذه السطور التالية تبحث بصفة خاصة عن الحلول العملية لتصحيح مسار المسلمين للرجوع إلى دينهم القيم، ولا أعنى بالحلول العملية، الحلول التي تبقي حبراً على الورق، أو التي تصطدم بالواقع الخارجي وليس لها تطبيق إلا في عالم الخيال والأحلام، وهو ما وقع فيه بعض من الكتاب المسلمين ـ ومازال ـ كما نجد بعضا آخر منهم حاول إيجاد حلولاً عملية ولكنها لا تأخذ ثمة اهتمام منهم، فتجدهم يسردون خط انحراف المسلمين من الناحية التاريخية سرداً دقيقا

ومفصلا، وكذلك آثار انحراف المسلمين شرحًا وافيًا. بما يشغل تسعة أعشار الكتاب، ثم يأتي فيما يختص بحل القضية ـ وهو الأهم في الوقت الحاضر ـ فيسرده موجزا ومتقضبًا، كما أن بعضًا مما يقترحه يكون تطبيقه في الواقع الخارجي لحياة المسلمين صعبًا وخيالاً.

إنني لا أطعن في نيات هؤلاء ولا هؤلاء فقد قصَّروا إلى حد كبير؛ لذا فإني أدعو علماء المسلمين والدعاة الذين يعملون في حقل الدعوة إلى أن يتجهوا بجهودهم إلى ما فيه خلاص الأمة وإزالة الغُمَّة عن طريق العمل الجاد والكتابات المجدية لشفاء مرضى المسلمين من مرض البُعد عن الله جل وعلا وعبوديته الحقة.

فأُعطي مثالاً على ما يقع فيه بعض الكتاب حتى أوضح ما أقول بالحلول العملية في ذكر بعض الكتاب المسلمين الأفاضل عن طريق خلاص المسلمين مما هم فيه فيقول: «إن المسلمين يحتاجون قبل كل شيء إلى إيمان عميق بدينهم، وفهم صحيح واسع له، واستعداد تام لإقامته في حياتهم، ويحتاجون إلى يقين ثابت بأن العودة إلى الإسلام هي الطريق الوحيد للخلاص من كل ما يعانونه اليوم في مجتمعاتهم. إنهم يحتاجون إلى روح جهادية عالية و... الخ [١].

إن من شأن ذلك كله أن يبعث في المسلمين قوة دافعة تهون في نفوسهم شدة العقبات وضخامة الجهود».

ونحن نتسائل كيف يصل إلى المسلمين ما يحتاجون إليه من إيمان عميق بدينهم، ويقين ثابت، وروح جهادية عالية ؟!

هل هذه الإحتياجات تتحرك من ذاتها فتدخل في نفوس وقلوب المرضى من المسلمين؟! أو هي مصل وقائي يوضع للمسلمين في حق ؟! أوهي مشروبات وأكلات سهل عليهم اقتناؤها وشربها ؟! إنها احتياجات ـ ولاشك ـ ضرورية

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر وكيف ينبغي أن يكون ـ خضر مصطفى النيجيري. رسالة دكتوراة ـ جامعة أم القرى ـ سنة ١٤٠٥هـ / ٥١٢، ٥١٣.

ومهمة، ولكنها كلمات تبقى حبراً على الورق ، ولا تعمل من ذاتها، إني أتساءل: كيف نأخذ بأيدي هؤلاء المرضى مما هم فيه حتى نصل بهم إلى بر أمان العبودية الحقة؟.

وفريق من الكتاب ممن اغترَّ بتقدم الغرب يتأسف على حال المسلمين وكيف أن الكفار قد تقدموا ووصلوا إلى القمر وصنعوا أحدث الأسلحة والصواريخ والقنابل الذرية .. إلخ ثم يطالب المسلمين بأن يعملوا جادين في إعداد العدة للقتال ويحثهم على عمل أرقى الأسلحة لمواجهة التقدم الغربي مستدلا بقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال :٦٠].

ونحن نقول له ـ ولغيره ـ إن المسلمين اليوم لا يملكون أهم سلاح وهو عبوديتهم الحقة لخالقهم جل وعلا ـ إلا من رحم ربك ـ فقبل أن تدعوهم إلى اختراع أرقى الأسلحة الفتَّاكة لمسابقة الغرب ، مُرْهُمْ بأن يرجعوا إلى عبوديتهم الحقة لله جل وعلا التي جهلوها وانصرفوا عنها. فوالله الذي لا إله إلا هو، لو أنهم أوتوا تلك العلوم الحديثة والمخترعات الفائقة والأسلحة المدمرة، وتفوقوا في مجموعها على ما عند الغرب ، إلا أنهم لم يرجعوا إلى عبوديتهم الحقة لله جل وعلا. فإنه لا عزة لهم ولا نصر ولا تمكين . أما وقد رجعوا إليها فإن نصر الله تعالى قريب: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر :٥١].

وإليك ـ وإلى جميع المسلمين ـ مثال حي ينطق بالحق، وهو : حين اطمأن بعض المسلمين الأوائل ـ والنبي ﷺ بين ظهرانيهم !! ـ على التفوق العددي في بعض غزواتهم، عاقبهم الله تعالى ولقنهم درساً لن يسنوه ، ولكن نسيه الكثيرون اليوم . كان ذلك في غزوة حنين إذ قال بعض المسلمين لما رأوا تفوقهم العددي

على أعدائهم : (لن نُغلبَ اليوم من قِلَّةٍ) فاطمأنوا على قوة العدد، مع أنهم لم يغفلوا عن عبوديتهم لله جل وعلا . فهل نفعهم ذلك ؟ كلا فقد انتصر المشركون لمكيدة فعلوها في بدء المعركة، اضطرت الكثير من المسلمين إلى الفرار (١). وفي هذا يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧]. فهل من معتبر اليوم ؟! فإذا كان هذا قد وقع لخير القرون على الإطلاق وهم غير غافلين عن عبوديتهم لله تعالى، فكيف بمن انسلخ عن العبودية الحقة وتمرغ في أوحال المعاصي ولم يعتز إلا بالقومية وقوة السلاح والعدد؟!

من السهل علينا أن ننطق بالحل الذي بينه ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنه إذ يقول فيه : «**إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سَلَّطَ اللهُ عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**» (٢).

أو ما وضحه الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله : (ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) .

فنقول للمسلمين : إن الحل لما نحن فيه هو الرجوع إلى الدين .

ولكن من الصعب تحقيق ذلك عملياً في واقعنا المعاصر، والسبب في ذلك: أن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ حين سمعوا مقالة النبي ﷺ كانوا مدركين تماما لما تحمله كلمة (الدين) خاصة وأنه ﷺ أضافها إليهم بقوله: «**دينكم**» فعلموا مقالة النبي ﷺ «**حتى ترجعوا إلى دينكم**» ووعوها، أما

---

(١) لمزيد من المعلومات لما دار في تلك الغزوة (حنين) راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٤٣٧ . الرحيق المختوم لصفي الدين المباركفوري : ص ٤٦٥ ـ ٤٧٠ .

(٢) سبق تخريجه .

المسلمون اليوم فيعتبر رجوعهم إلى دينهم من أشق الآمال؛ نظرًا لما رَانَ على قلوب الكثير من المسلمين واستقر في أذهانهم من انحسار مفهوم الدين وانقلاب الموازين في عقولهم رأسا على عقب في جعل المنكر معروفا والمعروف منكرا، وتحول المفهوم الصحيح للدين إلى انحرافات في معظم مفهومات الدين ـ كما رأينا في المبحث السابق ـ أضف إلى ذلك تسلط أعدائهم وكبتهم عن محاولة الرجوع إلى الدين ولو بالشيء اليسير ثم تحالف أغلب حكام المسلمين مع الأعداء في هدم الإسلام وأهله عن طريق شبكات التجسس الخارجية والداخلية، والقوانين التعسفية الوضعية الجائرة التي يحكم بها حكام المسلمين والتي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، ويخضع لها المسلمون دون اختيار منهم، كل هذا ـ وغيره كثير من العقبات الجسام ـ تجعل الطرق العملية والحلول الإيجابية أمرًا شاقًا وليس بالهين، كما تجعل قول النبي ﷺ: «**حتى ترجعوا إلى دينكم**» صعبة المنال، عسرة التطبيق، سهل التفوه بها. هذا مع إقرارنا بأنها الحق المبين الذي لا مرية ولاشك فيه.

لقد وعد الله عز وجل عباده المؤمنين بالتمكين في الأرض إذ هم قاموا بعبوديتهم لله جل وعلا. هذا التمكين لهم لا ليفسدوا في الأرض ولا لينصرفوا عن ربهم وخالقهم وإنما لإقامة عبوديتهم لله تعالى، فالله عز وجل يمكن عباده بعبوديتهم له جل وعلا، قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾**﴾ [النور: ٥٥].

وكما يبدو لي ـ ولغيري من الشيوخ الأفاضل وبعض أساتذة الشريعة وبعض الدعاة ممن حاولت أخذ آرائهم في طريق نجاة المسلمين ـ أن الحلول العملية وتطبيقها في الواقع الخارجي الذي يرفض كل ما هو إسلامي، أمر صعب للغاية فلا نستطيع أن نعمل من فراغ، وكذا الدين لا يعمل من ذاته، إذا .. فما العمل؟!! لابد وأن نعمل في نطاق الإمكانيات المتاحة دون شطط أو بخس

فأقول: إننا نحتاج إلى قوتين للعمل الإسلامي من أجل نجاة المسلمين.

الأولى - قوة مفكرة . ينتج عنها البحث والتنقيب في المناهج والأساليب الشرعية في التغيير في شتى المجالات في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة .

والثانية - قوة مؤثرة : ينتج عنها إلزام المسلمين بالاتباع .

وهاتان القوتان يحمل ثقلهما العلماء والدعاة والمصلحون؛ حيث إن واجب هؤلاء اليوم بل هو من أوجب الواجبات في مجال العمل الإسلامي هو تفهيم المسلمين ما جهلوه من حقيقة عبوديتهم لخالقهم جل وعلا وتطبيق مبادئ الإسلام وأخلاقياته تطبيقًا عمليًا.

وهذا يدعو الدعاة والعلماء والمصلحين إلى الالتزام بالدين كاملا بصورته الصافية النقية ابتداء تطبيقا عمليا فيكونوا قدوة لمن يدعوهم . ولنحذر قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣)** ﴾ [الصف :٢-٣].

ولقد اقترح بعض العلماء العاملين في الدعوة الإسلامية احتياج المسلمين إلى تربية وتصفية[١]، كما اقترح آخر[٢] التربية والبيان، فاتفقا في التربية، التي تعنى تربية المسلمين على النهج الصحيح والخلق القويم لتصحيح المفهومات المنحرفة لدى المسلمين نحو دينهم، أما التصفية فهي تنقية ما علق بالكثيرين من خرافات وبدع وأحاديث موضوعة وضعيفة، كما يقصد بالبيان إزالة الجهل عن الأمة بتوضيح وتبيين ما جهله كثير من المسلمين، وكلاهما (التصفية والبيان) قريب من الآخر .

فيقصد بالتربية أيضا الجانب العملي للدين، وبالتصفية والبيان الجانب العلمي للدين، وهو ما يوافق ما اقترحته من قبل بالقوتين المفكرة والمؤثرة.

---

(١) الشيخ / ناصر الدين الألباني.

(٢) الشيخ / محمد قطب.

فأقصد بالقوة المفكرة الجانب العلمي للدين، وبالقوة المؤثرة الجانب العملي للدين، والسبب في تعبيري عن الجانب العملي بأنه قوة مؤثرة هو ما أدعو إليه العلماء والدعاة والمصلحين أن يلتزموا عمليًا بالدين ابتداء بالواجبات، ثم المندوبات في أداء الفرائض والواجبات كما يظهر في سلوكهم : الأخلاق والتضحية والإيثار وبذل المعروف ، والتعاون على البر والتقوى، وتفقد أمور المسلمين واحتياجاتهم والسَّمت الطيب، والمخبر الحسن، والوفاء بالعهد، وما إلى ذلك من تعليمات الدين الحنيف التي تمنح الملتزمين بها قوة في التأثير على الآخرين، فتجعل فيهم قوة مؤثرة في إصلاح المنحرفين عن العبودية الحقة فيشار لهؤلاء الملتزمين بالدين الحنيف بأنهم إسلام يمشي ويتكلم، فلا يحتاج منهم كثرة البيان باللسان والقلم، فيكفي سلوكهم القويم وقوتهم العملية المؤثرة في النفوس، وهي ما يعبر عنه شرعا بالأسوة الحسنة أو القدوة الحسنة لقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)** ﴾ [الأحزاب : ٢١]، وقوله : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)** ﴾ [الأنعام : ٩٠].

وهو ما كان بالفعل موجودًا في نفوس الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ من تأثرهم بالقوة العملية للدين الحنيف المتمثلة في شخصية النبي ﷺ والتي ألزمتهم بالايمان به وبالدين الذي جاء به من عند الله تعالى، وكانوا كذلك من بعده القوة العملية للدين والتي ألزمت المخالفين في دخول دين الله أفواجا وملكوا بها مشارق الأرض ومغاربها. هذه القوة العملية للدين متمثلة في القيام بعبودية الله تعالى الحقة والتي ندعو العلماء والدعاة والمصلحين ابتداء إلى الالتزام والقيام بها ثم بعد ذلك الدعوة إليها ؛ إذ هم دون غيرهم حملة ميراث النبوة من العلم، وهذا العلم لا يغني ولا يسمن من جوع إن لم يترجم إلى واقع وسلوك فعلي ، فإن العلم الذي لا يورث العمل به فالجهل أولى به. فعجبا أن يتردد على ألسنتنا بأن الذين فتحوا جزر الملاوي وأندونيسيا وجاوا هم المسلمون التجار وأنه قد دخل

كثير من أهل تلك الجزر ـ أو كلهم ـ في الإسلام بتأثير القوة العملية للإسلام المتمثلة في أولئك المسلمين التجار وهم ليسوا بعلماء ولا مختصين في الدعوة، إنما هم مسلمون تجار تحققت فيهم قوة من العبودية الحقة لله عز وجل أثرت في قلوب هؤلاء الناس وألزمتهم بالدخول في الإسلام، هذه القوة المؤثرة التي ينبغي على العلماء والدعاة والمصلحين التحلّي بها لا التخلي عنها، مع ما لديهم من قوة مفكرة كافية لرجوع المسلمين إلى دينهم وعبوديتهم الحقة لله تعالى.

فمن واقع حياتنا مع افتقارنا إلى العلماء العاملين ـ إلا اليسير النادر ـ جعل كثيرا من الهيئات الإسلامية القائمة بالدعوة تترجم العديد من الكتب الإسلامية وأولها كتاب الله تعالى ثم كتب السنة وأشهرها الصحيحان إلى كثير من لغات العالم ليتمكن أهل الملل والديانات المحرفة من التعرف على حقيقة الإسلام وهو ما يمتاز به هذا العصر إذ ساعد ذلك على انتشار الإسلام في جميع أنحاء العالم ولكن مما يؤسف أن المسلمين ـ إلا من رحم ربك ـ يفتقدون القوة العملية المؤثرة التي بوجودها مع الكتب المترجمة عن الإسلام، يدخل معظم العالم في دين الله تعالى أفواجا وكأن تلك الهيئات الإسلامية تقول بلسان الحال: يا من تريدون الدخول في الإسلام عليكم أن تقرءوا هذه الكتب لتتعرفوا على حقيقته وعظمته أما نحن المسلمون فلا نملكه ! إنما هو في الكتب ! والذي يدخل في الإسلام ولا يعرف عن حال المسلمين من الابتعاد عن العبودية الحقة لخالقهم جل وعلا، ولكنه قرأ عن الإسلام الذي في الكتب المترجمة فإنه حين يصطدم بواقع المسلمين، يصاب بخيبة أمل وقد يؤدي ذلك إلى فتنة تصيبه في دينه والعياذ بالله تعالى.

هذا بخلاف المسلمين الأوائل ـ كما أسلفنا ـ الذين حققوا العبودية الحقة ، فكانت حياتهم تتكلم إلى من يدعوهم بلسان الحال والمقال معا فما احتاجوا إلى الترجمة بشكلها الواسع وبكمياتها الضخمة وبإمكانياتها العالية التي عليها الآن، بل دفعوا الناس إلى تعلم اللغة العربية ليعثروا على الكنوز التي في هذا

الدين العظيم ليهتدوا بها من ظلمات الجهل والغي والضلال .

إنَّ جُلَّ كلامي ينصبُّ بالدرجة الأولى على العلماء والدعاة والمصلحين فهم أعمدة الأمة الإسلامية وقواعدها الثابتة القوية التي تُبْنَى عليها.

يقول الأستاذ محمد قطب ـ حفظه الله تعالى ـ عن دور العلماء في إصلاح الأمة: «لقد كان علماء الدين دائماً في تاريخ الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجأها كذلك إذا حزبهم أمر، وملاذها عند الفزع تتجه إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوي السلطان أحيانا ويلقون في السجون أحيانا، ويؤذون في أبدانهم وأموالهم وكرامتهم أحيانا، ولكنهم يصمدون لهذا كله، تقديراً لمسئوليتهم أمام الله ـ وهم الذين مَنَّ الله عليهم بمعرفة دينه ـ حين يسألهم ربهم يوم القيامة عن (الأمانة) الكبرى الملقاة على عاتقهم ، وعن مهمة دعوة الناس إلى الحق ـ حاكمهم ومحكومهم ـ ومهمة النصيحة في الدين لأُولي الأمر خاصة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للراعي والرعية سواء . وإمامهم ﷺ يشجعهم على احتمال البلاء في سبيل هذه الأمانة. فيقول لهم : «**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»[١]، وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في أمورها السياسية والاجتماعية والإقتصادية والفكرية والروحية. فكانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان، يذكرونها بالله واليوم الآخر والجنة التي تنتظر المجاهدين الصامدين وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم أحيانا، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان...»[٢].

---

(١) صحيح الجامع : ٣٥٦٩، السلسلة الصحيحة : ٣٧٤ .

(٢) واقعنا المعاصر : محمد قطب : ٣٢٦ـ٣٢٧ .

إنني مازلتُ أحثُّ العلماء والدعاة والمصلحين على الرجوع إلى عبوديتهم الحقة لله عز وجل وتحقيقها في أنفسهم . فوالله الذي لا إله غيره إني لأكتب هذه الكلمات وأتجه إلى الله أن تجد قلوبًا واعيةً وآذانًا صاغية ونفوسًا ذاكرة في وسط الكم الغفير من الذين يعلمون كثيرا ويعملون قليلاً، فآمال الأمة كلها بهم؛ إذ هم الفرقة الظاهرة. فيقول ﷺ: «**ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق**»(١). فيذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ نقلاً عن البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ أنهم أهل العلم(٢).

وأهل العلم المقصودون في الحديث هم العالمون العاملون. فهو حث للعلماء أن يعملوا بما علموا وإلا فحسابهم عسير يوم القيامة حين يلقون ربهم جل وعلا، فبهم ترقى الأمم وبهم تتردى.

يقول د. بكر أبو زيد ـ حفظه الله تعالى ـ : «وتأمل سرًا عظيمًا من أن ترقي الأمة وانحطاطها وانضباطها أو فشلها يؤول إلى ركن ركين وأصل أصيل قوة أو ضعفًا، اجتماعًا أو تفرقًا إلى (رابطة العلماء) ولما يقوم بهم من احتساب يصغر دونه الاكتساب، واجعل نظرك إلى قيام (رابطة العلماء) مقياسًا تقيس به الدول وتزن به الأمم فيمن غبر وحضر. والعالم العدل هو (المحتسب) الذي لايحترف بالإسلام ولا تثنيه الأطماع، هذا الواجب هو الذي من أجله سميت هذه الأمة (خير الأمة) ، ومن أجلها صاروا (أمة وسطًا) ، وصاروا (شهداء على الناس)، هذا هو المتعين على العالم المتأهل: تفاعل مع الدعوة، وقيام بها ، وأن تكون دائرة همِّه، وتفكيره، فلا يهمه إلا همها، ولا يُفكر إلا بسبيلها، طلبًا لبناء الأمة في (غربتها الثانية) ، بناءًا وتأسيسًا على منهاج النبوة، على يد علماء الأمة العاملين من التربية والتوجيه والتعليم، والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

---

(١) البخاري : ك، الإعتصام بالكتاب والسنة ـ ب : قول النبي ﷺ : «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق».

(٢) فتح الباري : ١٣ / ٢٩٣ .

شعوراً بهذا الواجب، وأداءً له، وإقامة للحجة على الخلق وحفظًا لرأس المال (المسلمين)، وطلبا للربح. أما أن يتولى أهل العلم عن مهمتهم في موقع الحراسة لدين الله، ويتأخرون عن مواجهات عصرهم، فهذا من التولي يوم الزحف»[١].

وقد كنت من قبل أطالب بوجود (رابطة العلماء) بنفس الاسم الذي أطلق عليه د. بكر أبو زيد، إلا أنني وجدت هذا المطلب صعب المنال في وسط الهيئات اللادينية التي تعمل بكل جهدها لإخمادها وتمنح المؤسسات الدينية قدراً من التحرك دون المساس بها أو بخططها، بل يكون هذا القدر الممنوح في خدمة الهيئات التي لاتحكم بما أنزل الله تعالى، لا في تعكير صفو حياتها الإنحلالية؛ لذا فوجدت أن أُوَجِّه النداء إلى العلماء والدعاة والمصلحين للرجوع إلى عبوديتهم لله جل وعلا وتحقيقها في أنفسهم، ثم يقومون بعد ذلك ـ أو عند ذلك ـ إلى دعوة الناس إليها وانتشارها بينهم انتشاراً أفقيًا بمعنى أنه يشمل ويضم دعوة العديد من المسلمين إلى العبودية الحقة لله جل وعلا، علمًا بها وعملا لها عن طريق الاحتكاك بالمسلمين من خلال خطب الجمعة بموضوعاتها المفيدة والمركزة في تفهيم الناس عبوديتهم لخالقهم، وحلقات الدروس اليومية والأسبوعية وفى المدارس والجامعات والمؤسسات، كل حسب قدرته وطاقته، وكل حسب الإمكانيات المتاحة له، فإن كانت الإمكانيات التي حولنا ضيقة ومحدودة على حسب ما بيناه آنفًا، فالقدارت والطاقات التي لدى العلماء والدعاة والمصلحين لابد وأن تكون واسعة وقوية ومركزة نحو الهدف في رجوع المسلمين إلى عبوديتهم الحقة لله جل وعلا. ونحن نجد هذه الأيام بشائر خير على يد بعض العلماء والدعاة والمصلحين في دعوة الناس إلى الرجوع إلى دينهم بما يسميه بعض الدعاة بالصحوة الإسلامية.

إنه رغم ما حدث من الانحراف لكثير من المسلمين في مفهومات الدين، إلا

---

(١) حكم الإنتماء: بكر أبو زيد: ٥٠ ـ ٥١.

أنه مازال يقر في قلوبهم حتى المنحرفين منهم تقدير أهل العلم والدين واحترامهم والإلتجاء إليهم في حالة التوبة والندم. وهذا يدعو العلماء والدعاة والمصلحين إلى استغلال هذا مع ما أدعو إليه من التزامهم أولا بالقيام بعبودية الله تعالى الحقة، إلى دفع المسلمين إلى الرجوع هم الآخرين إلى العبودية الحقة لله جل وعلا. وإنا لنأمل في هؤلاء العلماء والدعاة المصلحين من يخرج بينهم ويقيم للإسلام دولته وما ذلك على الله ببعيد، فقد أخبر النبيُّ ﷺ ببعثة من يجدد هذا الدين في قوله: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها**»(١).

لذا فقد ذكرتُ سابقًا إن انتشار الدعوة يكون أفقيا لتثبيت القاعدة التي تدعو إلى عبودية الله تعالى الحقة وتستطيع بالتالي الدفاع فيما بعد عن دينها ونفسها، والصد لأي هجوم خارجي. أما ما يفعله الكثيرون في الانتشار الأفقي قليلا ثم ينتشرون رأسيًا بمعنى الظهور المفاجيء والتطاحن مع الحكومات اللادينية فإنه لا يُجدي ولا يُثمر بل على العكس يقطع جذور الدعوة ويدفع تلك الحكومات اللادينية في تضعيف وتزويد قواتها وتنكيلها بالملتزمين عموما، وهو ما حدث ـ ويحدث ـ مع كثير من الجماعات الإسلامية التي غرست بذور الدعوة وعملت على سقيها ورعايتها ولكنها تسرعت في الحصاد قبل الإثمار فقضت تلك الحكومات اللادينية على جذورها وعروشها، كما قضت بجانبها على بذور لم تُسق بعد.

إنى أتوجه إلى العلماء والدعاة والمصلحين بهذا النداء الرباني الذي لم يتبدل ولم يتغير: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)** ﴾ [الحديد : ١٦]

فهم أعلم من غيرهم به؛ فهذه الآية من سورة الحديد، وهي سورة مدنية

---

(١) أبو داود : ك، الملاحم ـ ب : ماذكر في (قرن) المائة . (صحيح الجامع: ١٨٧٠).

بالاتفاق تخاطب الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ الذين ربُّوا تربية قرآنية ورسخت في قلوبهم العقيدة منذ أكثر من ثلاثة عشر عامًا بمكة المكرمة وتحققت فيهم العبودية الحقة لله جل وعلا، يعاتبهم الله تعالى بقوله أما آن للمؤمنين أن تلين قلوبهم وتخشع وتخضع عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه [١] إنه لحريّ بالعلماء والدعاة والمصلحين أن يخاطبوا بهذه الآية ـ ثم يخاطب بها من دونهم ـ مرارًا وتكرارًا؛ حتى نعود إلى العبودية الحقة.

[١] تفسير القرآن العظيم ابن كثير : ٤ / ٣١٠ .

obeikandl.com